قرية الظلام و عجوزها الخرف

رواية

الجزء الأول

أسامة علي

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف
عنـــوان الكتاب: قرية الظلام و عجوزها الخرف – الجزء الأول
اســـم المـؤلف: أسامة علي
رقـم الإيـــــداع: 9441 / 2020
الترقيـــم الدولي: 1 - 66 - 6792 - 977 - 978
تصميـــم الغلاف: محمد وجيه
التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين
التنسيق الداخلي: محمد وجيه
البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر - بورسعيد
المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة
جوال: 00201211132879
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

تنويه

هذه الرواية مبنية على أحداثٍ حقيقةٍ، لذلك ترفُّعت عن ذكر الأسماء، خوفاً على جرح مشاعر أحدهم، وليس خوفاً من أحد.

قريةُ الظلامِ
وعجوزها الخَرِفْ[1]

[1] معنى خَرَفْ
بفتح الخاء والراء وهي تعني فساد العقل، وهي عبارة عن تدهور مستمر في وظائف الدماغ ينتج عنها اضطراب في القدرات الإدراكية، مثل الذاكرة والتفكير السليم والحكمة، لذا يعاني من يصاب بالخرف من عدم القدرة على الاهتمام بنفسه، ويتميز أصحاب هذا النوع بكونهم أكثر عدائية وأقل اجتماعية يميلون أكثر للانطواء ودائماً ما تكون نظرته ثاقبة وحادة.

هنا الريفُ حيث الهدوء ولا غير، وفي أشدِ قرى الريف هدوءاً يسير هذا الفتى صامتاً. فما بين رجال ترعى أرضها وماشيتها، وما بين أطفال يصيحون بين الحين والآخر يلعبون، وما بين نساء يتسامرن.

يسير صامتاً... المشهدُ في القرية هادئٌ كعادته نهاراً، يزيد الهدوء مع غروب الشمس ويصل ذروته مع ازدياد سواد الليل، فلا صوت يعلو فوق صوت الحشرات التي تسمعها بجوارك، ولكنك لن تراها، أو نباح كلبٍ ضالٍ. يسير هذا الشاب ليلاً فهو يختلف عن أهل قريته حتى في وقت نومه، فالليل هو صديقه المقرب، وسواد الليل هو اكتمال وضوح النور في عينيه.

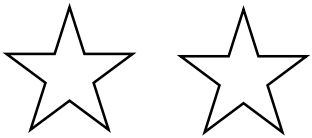

مشهد القرية ليلاً عجيب جداً! الطرقات شبه خالية فما بين الحين والآخر قد يمر شخصٌ ما، خرج بإرادته الكاملة، فهو قطعاً مجبرٌ لإتمام أمرٍ ما، أو ربما عائدٌ من زيارة أحد أقاربه.

البيوت كلها هادئة ومظلمة من الممكن فقط إشعال لمبة واحدة، الأصواتُ معدومة إلّا في حالاتٍ طارئةٍ، كأنْ يجتمع أهل القرية في ليلةٍ ما في إحدى بيوتهم لأمر مصالحة في مخاصمةٍ، أو تحضيرٍ لعرسٍ، أو عزاءٍ، فحقيقة هذا ما يميز هذه القرية الهادئة، ربما لا يعرفون الدين جيداً ولكنهم يخافون من العادات أكثر من خوفهم من القانون، وفي مجالس حكمهم يتم البت والفصل في نزاعاتٍ ما انتهت في المحاكم إلا بعد عقود، كلمتهم دائماً واحدة، لا يخلفون وعودهم ولو كلفتهم حياتهم، بأسهم شديد، ولكن العزلة التي يعيشون فيها جعلت منهم منظراً مرعباً، حتى هدوء قريتهم جعل لها من القدسية ما تخشاه.كل هذ ألا يفرح هذا الفتى فهو حقاً غامض!!!.

يسير ليلاً في قرية هادئة كهذه لا يمكنك أن تطلق عليها إلّا مقابر الأحياء. وذات ليلة؛ وبينما يسير هذا الفتى في القرية وبعد أن أطلق لخياله العنان

فسار بعيداً، استقر به المطاف على أسوار المقابر، ولكن هذه المرة هي مقابر الموتى الحقيقية لأهل هذه القرية.

ولا أعتقد أن هناك فرق كبير بينهم، فالراقد هنا سيأتيه الجالس هناك عاجلاً أم آجلاً، حتى هذا الهدوء الذي يخيم على المقابر ليلاً،

لا أراه يختلف كثيراً عن الهدوء الذي يحيط بالقرية، حقاً جميعهم أموات ولكن تختلف الميتات.

وبينما هذا الفتى يجلس بجوار أحد المقابر، وإذا بصوتٍ يأتي من قريب، هو صوتٌ هادئٌ ولكنّه غير واضح، لا يمكنك حقاً فهم الكلمات مهما أصغيت، تشعر أحياناً بأنّها عتابٌ وأحياناً أخرى كأنّها توسلٌ، الأمر غير مريح بالمرة!!

بدأ عقل الفتى يجره تارةً نحو الخرافات، وتارةً أخرى نحو مصدر الصوت، فهذا الصوت غريبٌ لم يسمعه من قبل. بدأ الخوف يدب في عقله، والابتعاد عن مصدر الصوت هو أسلم الحلول، وبدأت تحدثه نفسه قائلةً: أنت هنا في المقابر ولا مغيث سيغيثك إذا صار مكروه، فأهل القرية جميعهم نيام، فهذه الليلة هي ليلة حالكة السواد، وصوت حفيف الأشجار ما بين الحين والآخر، يضفي للمكان شكلاً آخر من أشكال الرعب، وصوتٌ يخرج من المقابر من وسط الموتى!! الأمر جداً مرعب. ولكن فضول الشاب دفعه لمعرفة مصدر الصوت،

وهل هناك أحد الموتى بدأ يتحدث؟ فنبرة الصوت هذه مختلفة وهو ما دفع الفتى للبقاء مهما كلّفه، ووسط هذا المشهد المرعب المخيف استجمع الفتى قوته، وبدأ في الاقتراب من مصدر الصوت، الذي يأتي من أحد المقابر التي توجد في زاويةٍ لا يصلها أيٌّ من أشكال الإنارة، واقترب أكثر وكلما اقترب كلما ازداد مصدر الصوت، تشعر وكأنّه كلما اقترب خطوة كلما دخل عالماً آخراً.

وعندما وصل إلى مصدر الصوت إذا بهيئةٍ بشريةٍ تجلس على أطراف أحد المقابر، يبدو أنّه رجلٌ كهلٌ كبيرٌ يتوكأ على عصا وهو جالس، يرتدي ثياباً سوداءَ، يضع اتجاه وجهه ناحية المقبرة، فاقترب الشاب أكثر، ولكن يبدو أن العجوز لم ينتبه وهذا ما أثار المخاوف أكثر فأكثر... كيف لا يشعر بي وأنا على بعد قدم منه؟

فأردت أن أتحدى الخوف الذي انتابني، وقلت في قرارة نفسي، لا بد أن يُعيرني اهتماماً، ولكن كيف أبدأ؟

ألقيت السلام فلم يرد ولم يعِرني أي انتباه، حتى فكره لم يتشتت لحظة ليعرف من معه في المقابر، وفي ليلةٍ حالكة السواد مثل هذه الليلة، في منتصف الشتاء وما أدراك ما الشتاء في الريف؟ هذا الأمر جنوني ومن هذا الرجل؟ ولماذا يجلس هنا في هذا الوقت المتأخر؟

وماذا يقول؟ وهل حقاً لم يسمعني؟ وإذا سمعني فلماذا لم يرد السلام؟
أسئلةٌ كثيرةٌ بدأت تسيطر على عقلي وتطرد مخاوفي فماذا سيحدث؟
فليكن ما يكن ولكني لن أذهب قبل أن أعرف من هذا الرجل، ولماذا يجلس هنا؟
فاستجمعت قوتي وقررت الاقتراب أكثر، ومداعبة جسده بيدي حتى ينظر لي، وعندما وضعتُ يدي على كتفه نظر لي ولم يُعِرني أدنى اهتمام، عيناه كانتا شديدة الاحمرار ولحيته بها عدد قليل من الشعر الأبيض، لم يتحدث ولكنّي أعرفه، نعم أعرفه.
فهذا الرجل هو أحد أفراد القرية ولكنه لا يشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ليس قليل الكلام وإنما معدم، لا أذكر آخر مرة سمعته يتحدث مع أحد، ولا أعتقد أن أحدهم يريده أن يتحدث، فهو صاحب نظرةٍ حادةٍ، ويعيش بمفرده في بيت كبير تركه له أجداه، الجميع في القرية يتشاءم منه، ثيابه دائماً مهلهلة، لا تراه في زينته إلا ليلاً، إن شاء القدر ورأيته في إحدى الليالي عائداً إلى بيته الذي لا تراه دائماً إلا مُظلماً، ولكن السؤال الذي يدور بداخلي الآن، ما الذي أتى به إلى هنا في هذا الظلام الدامس وماذا يفعل؟ سألته فلم يجِبْ، فعاودت الكَرّة وسألته أتريد شيئاً أساعدك؟

هنا استدارَ لي بوجهه الحاد ونظر لي نظرةً مرعبةً

-وقال: أنت الذي أتيت وأنت الذي تريد.

ووسط دهشتي طلب مني الجلوس فجلست، وسألته ما الذي أتى بك إلى هنا ومع من كنت تتحدث وماذا كنت تقول؟ فقال لي بكلام حاد: أردته أن يوقف هذه الحرب،

-فقلت له: مَن تقصد وعن أي حرب تتحدث؟

فنظر لي وكأنه يأمرني بالسكوت،

-واستطرد قائلاً: احتدم الصراع وتأهب الجيشان كلاهما أعدَّ عدته وعتاده وفشلت كلّ وساطات الفضِّ بينهم ولا مجال لإيقاف هذه الحرب إلا هنا، وصمت.

-فهمَمْتُ بالحديث وسألته متعجباً: حرب وهنا؟! ماذا تقصد؟

وليتني ما سألته فقد عاد لصمته مجدداً، مع نظرةٍ مرعبةٍ لي واعتدل في جلسته، وأدارَ وجهه مرة أخرى إلى القبر وتمتم بكلماتٍ لم أفهمها، وهمَّ بالرحيل. فحاولت الإمساك به لأفهم ما يدور، ولكن نظرته المرعبة عادت من جديد، حقاً أفقدتني توازني، واستند على عصاه وبدأ في الرحيل.

جُنَّ جنون عقلي ما هذا الذي يحدث؟

وما هذا العجوز الخَرِفْ؟ وعن أيّ حربٍ يتحدث؟

الأسئلة تتوالى ما حال بيني وبينها سوى صوت هذا الرجل يأمرني بالانصراف، وألّا أعود إلى هنا مجدداً، وإن عدتُ سأكون قتيلاً، فاستغربت وقلت قتيلاً؟!! فلم يرد لكنه أومأ لي برأسه وانصرف. حركته كانت سريعة ليست حركة عجوزٍ يتكئُ على عصا، بل هي حركة شاب عشريني، ثوانٍ قليلة وحال الظلام بيني وبين رؤيته، يبدو أنّه سلك طريقاً يعرفه وسط المقابر جيداً، ظللت في دهشتي هل أنا نائمٌ وأحلم أم مستيقظ؟

وهل سأكون قتيلاً أن عدت إلى هنا؟

إذاً فمن سيقتلني ولماذا يقتلني؟!!

حقيقة لا أعلم كم من الوقت مرَّ وأنا بحالتي هذه أسأل نفسي ولا مجيب، كلّ ما أذكره أن صوت نباح كلبٍ ضالٍ هو ما أعادني إلى هذا الواقع من جديد، هنا فقط شعرت أني مدين لهذا الكلب، فبرغم فزعي من صوته إلا أنّه أعادني إلى الواقع، لأخبر نفسي أنَّ كلّ ما حدث حقيقة وليس حلماً في منام.

جلست مكان العجوز ونظرت إلى القبر، كما كان ينظر لعلَّ القدر يحالفني وأستطيع الظفر ومعرفة أيّ شيءٍ ولكن دون جدوى، حقيقة لا شيء يلفت الانتباه، قبر عادي يبدو أنّه لم يفتح منذ فترة طويلة، ازداد القلق والخوف

بداخلي فقررت اقتفاء أثر العجوز لعلّي أجده عند قبر آخر، ولكنّه كان كسرابٍ يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فكلما شككت بوجوده في مكان ذهبتُ فوجدت إما شجرة أو ارتفاع الأرض، لكن لا أثر لوجوده.

هنا قررت الرحيل من هذا المكان البائس، وعدت إلى بيتي ودخلت غرفتي واستلقيت على سريري، حاولتُ النوم لكن أيّ نومٍ يأتي بعد ما حدث؟

بدأت سيل الأسئلة تتدفق من جديد على مسامعي، هل أتناسى أمر ما حدث؟ أم أبحث وراء العجوز؟

فعن أيّ حربٍ كان يتحدث ومع من كان يتكلم؟

أحاول النوم لكن دون جدوى، أشعر وكأنَّ عينيّ تخاصماني، بتُ ليلتي هذه أتقلب في سريري، لا أعلم إن كان النوم حالفني لبعض الوقت أم لا؟ كل ما أعلمه أن عقلي لم ينم ويبدو أنه لن ينم إلا بعد أن يعرف بأمر العجوز هكذا حدثتني نفسي...

في اليوم التالي ومع شروق الشمس بدأت الحياة تدبُّ مرة أخرى في مقابر الأحياء (القرية) ولكن على استحياءٍ كعادتها، هنا غلبني نومي يبدو أنَّ عقلي كان مرهقاً واستسلم أخيراً للنوم، استيقظت على صوت أخي يخبرني أنّ

أحداً من أفراد القرية قد مات، وسيتم دفنه والصلاة عليه بعد قليل، ولابد من وجودي معهم، فاستيقظت وارتديت ملابسي وذهبنا للصلاة على الميت، ومن ثم ذهبنا إلى المقابر.

وعند دخولنا المقابر استجمعت كل ما دار معي البارحة، فيبدو أن هذا الميت سيتم دفنه إما في القبر الذي كان يجلس عليه العجوز أمس أو بجواره مباشرة....

الغريب في الأمر أني وجدت العجوز بين الزحام وهذه ليست عاداته فهو لا يشارك أحداً.

هنا شعرت أنَّ هناك شيئاً خفياً وراءه، ولابد من معرفته.

وبينما كان الجميع منشغلاً بأمور الدفن كنت أراقب أنا تحركات العجوز ونظراته الحادة، ما أثار حفيظتي أني وجدته يطيل النظر باتجاه القبر.

الأدهى من ذلك أنَّ شفتيه كانتا دائمة الحركة، الجميع قد يظن أنه يذكر الله أو يدعو ولكني على يقين أنّه يفعل شيئاً غير هذا.

وبينما أنا أنظر إليه وأطيل النظر إذا بي أجد عينيه الحمراء ونظرته الحادة صوبي، لم أفهم ماذا يقصد خاصة أنَّ حركةَ شفتيه لم تتوقف، فهل يكلمني؟ هل يريد شيئاً؟ هل يحذرني من الحديث عمّا رأيته بالأمس؟ حقاً لا أعرف!!

كلّ ما توجب عليَّ فعله هو استدارة وجهي عنه فنظرته الحادة الثاقبة لا يمكنك أن تقاومها كثيراً حتماً ستنهزم أمامه، وبعد دقائق قليلة قررتُ أن أعيدَ النظر إليه لأراقبه وأرى ما إذا كان ينظر لي أم لا؟ الغريب أني لم أجده في مكانه!!!

يبدو أنه تحرك ولكن كيف السبيل أن أجده وسط هذا الزحام؟

دارت عيناي سريعاً كما كاميرات مراقبة استجمعت وجوه الحاضرين فلم أجده، ومع حركةٍ بطيئةٍ لمحتُ طرف ثوبه المهلل يجلس وحيداً، كان يبدو عليه التوتر الشديد...

تم دفن الميت، وبدأ الجميع في الانصراف واحداً تلو الآخر ولا زال العجوز قابعاً في مكانه وأنا أراقبه عن بعد، ويبدو أن عقلي كان مشتتاً بمراقبته أكثر من الحاضرين ومراسم الدفن، فلم أنتبه إلا مع حركته وهو ينهض ويحاول الاتكاء على عصاه ليهُمَّ بالرحيل هنا نظرت حولي، فوجدت المشهدَ خالياً من جميع البشر إلا أنا وهو، فنظر إليّ نظرةً ولكن هذه المرة كان فيها شيءٌ من الابتسامة وضحتُ جلياً على معالم وجهه وتجاعيده، وكأن حِملاً قد سقط من على كاهله.

ولكنّه لم يتكلم وانصرف مسرعاً...

عدت إلى بيتي وكان غروب الشمس قد أسدل الستار على ضوئها، وأصبح السكون يقترب أكثر فأكثر من القرية، ولكني على يقينٍ أنَّ هذه الليلة لن تكون ساكنة كالليلة التي قبلها.

فاليوم هناك ميتٌ ومراسمُ عزاءٍ ستتمُ، وستضجُ القرية بمن حضرَ ليقدمَ واجبَ العزاء من القُرى المجاورة، والجميع سيكون مستيقظاً حتى منتصف الليل، لم يمر طويلاً وحلَّ الظلامُ وبدأت وفودٌ من القُرى المجاورة، جاءت لتقدم واجب العزاء.

القرية أصبحت مزدحمة ليلاً وهذا ليس من عاداتها، كما أنَّ كلَّ البيوت لا زال هناك فيها حركة ولو على استحياء، أيضاً القرية كلّها مضيئة الشوارع والبيوت، ومع أنّ ما يجمعهم هو واجب عزاء في متوفٍ إلّا أنّك تشعر وكأنَّ موته أضاف حياةً جديدةً لهذه القرية الليلة.

فجميع رجال القرية حاضرون في مقدمة العزاء.

منهم من يستقبل الوفود ومنهم من يقوم على خدمتهم ومنهم من يودع من أراد الرحيل... هكذا هي العادات في القرية.

كنتُ بين الصفوف ولكنَّ المشهد الذي حدث في المقابر مع العجوز جعلني أركزُ وأبحثُ في وجوه الحاضرين لعلّي أجده، ولكنّه كعادته لم يكن بين الصفوف.

سرحَ خيالي قليلاً ودار سؤالٌ في عقلي، إذا كانت هذه هي عاداته التي اعتادها، إذاً فلماذا جاء إلى مراسم الدفن وحضر إلى المقابر وهذه هي مرته الأولى؟

وما سبب التوتر الذي كان يصيبه كلما اقتربوا مِن القبر؟

ومَن داخل هذا القبر؟ عادت الأسئلة تتوالى من جديد لترهق ذهني وتشتت عقلي.

آهٍ منك أيها العجوز ماذا وراءك؟ مرَّت عقارب الساعة وانتهت مراسم العزاء في ليلتها الأولى، ورحل كلّ من هو خارج القرية، وعاد أهل القرية جميعهم إلى مضاجعهم ومساكنهم.

أطفأت الأنوار وعاد الهدوء يخيم على القرية من جديد، الطرقات أصبحت خالية تماماً، وأصوات نباح الكلاب ما بين الحين والآخر هو فقط ما يظهر جلياً، يبدو أنَّ البرد القارص هو ما يدفعهم لإصدار هذا الصوت، فهذه الليلة باردةٌ جداً وهواؤها شديدٌ، يبدو أنّها موجة رياح خماسينية وما أدراك ما موجة الرياح في الريف؟

ومع اقتراب انتصاف الليل لا أدري ما الذي دفعني لاتخاذِ قرارٍ بالمرور من أمام بيت العجوز؟! أعتقدُ أنّي كنت مجبراً ولستُ مخيراً أمام ثورات عقلي والأسئلة التي تتوالى وترهق ذهني.

بيت العجوز هو في أحد أطراف القرية ولا يوجد بجواره أحد، لا أذكر أنّي يوماً دخلته، كلّ ما أعرفه ويعرفه الجميع أنّه بيتٌ كبيرٌ تركه له أجداده، ولا زال بهيئته الطينية ويسكن فيه وحيداً، ولا تراه دائماً إلا مظلماً، تشعر وكأنّه كهفٌ يسكنه نائمٌ أو ديرٌ يتعبدُ بداخله راهبٌ اعتزل الناس.

ذهبتُ باتجاه بيته وكما هي عادته مظلمٌ إلا شعاعُ نورٍ خافتٍ يخرجُ من أحد زواياه، نوافذه كلها مغلقة، المكان هنا أكثر هدوءاً حتى من القرية، لا صوت سوى صوت الهواء يداعب الأشجار، ولكن أين العجوز؟ لا صوت له، حاولت جاهداً الإصغاء لأسمع صوت العجوز، ولكن يبدو أنّه غير موجود بالبيت.

وقفتُ عند مؤخرة بيت العجوز أحاول فهم كيف يعيش هذا العجوز في مكان مثل هذا وحيداً؟ فجدران البيت بها فتحات قد تدخل يدك كاملة بداخلها. لولا علمي بأن العجوز يسكنه لأقسمتُ أنَّ هذا البيت مهجور منذ مئات السنين فلا صوت يخرج منه.

منظر البيت من الخارج مرعب وفظيع، تشعر وكأنّه بيتٌ أُعدّ خصيصاً للرعب.

هيئته الخارجية البالية وطرازه القديم من الطين اللين، الأشجار العالية القديمة التي تغطي البيت من الخارج، المنزل ليس له مدخل سوى باب واحد من الخارج، الجدران منخفضة الارتفاع، والبردُ قارسٌ هنا، وصوتُ الرياح يداعب الأشجار، حتى الضوء الخارج من بيت العجوز، هو ضوءٌ خافتٌ بالكاد يدلك على أنَّ هنا منزل، لكن لا يساعدك إن حاولتَ رؤية شيءٍ آخر من خلاله، لا تعلم إن كان نور شمعة أم لمبة إنارة جارَ عليها الزمان.

مرَّ الوقت سريعاً وأنا أتأمل بيت العجوز من الخارج، وكيف له أن يعيش في هذا البيت وحيداً؟

وبينما أنا أتأمل بيته إذا بصوتِ البرقِ والرعدِ يداعب السماء، يبدو أن هذه الليلة لن تكتفي ببردها القارس ولا بهوائها الخماسيني، فهناك أمطارٌ قادمةٌ.

وسرعان ما بدأت في الهطول وبقوة، لم تعطِني حتى فرصه لأذهب من أمام بيت العجوز، ومع شدة الأمطار قررت الانزواء والاختباء منها في إحدى زوايا بيت العجوز من الخارج، ومع ازدياد الأمطار أحاول أنا جاهداً الاقتراب أكثر فأكثر من جدران بيت العجوز لعلّي أقي نفسي منها. مرَّ وقتٌ

لم يكن طويلاً وبدأ صوت الأمطار في الانخفاض وأنا لازلت قابعاً في مكاني بجوار جدارٍ في آخر بيت العجوز من الخلف، وبينما أنا في حالتي هذه إذ بمفاجئةٍ تحدث.

يبدو أن العجوز ليس خارج البيت كما توقعت، فالآن أنا أسمع صوته بالداخل خلف الجدار يتحدث؛ صوته وكلماته واضحة.

يخبر أحداً أن الأمطار ستنتهي بعد دقائق وسيذهب ويأتي له بما أراد.

لا أعلم إن كان هذا هو بداية الحديث بينه وبين من معه بالداخل أم هو نهاية الحديث، وأنَّ صوت الأمطار هو ما حال بيني وبين سماع ما دار من البداية بينه وبين!!

بينه وبين من؟!!!

وقفت مذهولاً عندما استجمعت ذاكرتي وعدت إلى وعيي، فهذا العجوز كلنا يعرف أنّه يعيش وحيداً في هذا البيت، إذاً فمن معه بالداخل؟

وما الشيء الذي سيذهب لإحضاره له؟

هنا فقط أيقنت أن وراء العجوز سرٌّ لابد من معرفته ولو كلفني حياتي.

حاولت البقاء في زاوية من مقدمة البيت، أرى منها الباب ولا يراني العجوز أن خرج.

لأراقب متى سيخرج ومن معه. مرَّ بعضٌ من الوقت هدأت الأمطار تماماً وما زلت أراقب العجوز، فتح الباب وخرج وأغلقه وراءه ولكن لم يخرج معه أحد، بل خرج وحيداً بعصاه، وفي أبهى زينته كعادته ليلاً.

هنا دار سؤال بعقلي، هل أتحرك وراء العجوز وأراقبه أم أنتظر خروجه وأعرف من بالداخل معه؟

حقاً لا أعلم ماذا أفعل؟ ولكني قلت في نفسي، حتى إن راقبته قد يفعل أمراً لن أفهم منه شيئاً مثل ليلة المقابر ولكني لو عرفت من معه بالداخل هنا ستكشف الكثير من الحقائق المخفية، وكان هذا ما قررته، اختفى العجوز خارج البيت لا أعلم أي طريق سلك، واقتربت من الباب ولكن كيف أدخل وماذا سأقول؟ دارت الأفكار في عقلي سريعاً، فهذه ليلة ممطرة وطرقات القرية لا تصلح للاستعمال الآدمي.

وليس هناك مشكلة في احتياجي لبعض المساعدة، هكذا قررت وهكذا سأفعل.

طرقت الباب فلم يجب أحد، عاودت الطرق أيضاً لا مجيب، هنا دار الشك داخلي، أنَّ مَن بالداخل يسمعني ولكنه لا يريد فتح الباب وهذا ما أثار

حفيظتي وفضولي للدخول لأعرف من هو وما علاقته بالعجوز. دفعتُ الباب ببطءٍ انفتح دون صعوبة، يبدو أنّ العجوز لا يغلقه جيداً كما نفعل نحن.

الباب خشبي كبير له حلقة من الخارج صوته مرعب إذا تحرك، دخلت من الباب ألقيت السلام فلم يجِب أحد، سألت هل يوجد أحد هنا؟ فلم يرد أحد.

المخاوف والشكوك بدأت تتملكني، فأنا سمعت العجوز يتحدث مع أحدٍ لا مجال للشك في ذلك، صوته وكلامه كانا واضحين، إذاً فمن في الداخل ولماذا لا يرد وهل هو متعمد ذلك؟؟؟!

قررت الدخول أكثر. هيئة البيت على الطراز القديم، الباب الخارجي هو في منتصف طرقة كبيرة تجمع البيت كله من المنتصف، وعلى اليمين واليسار توجد الغرف، والغرف في هذا البيت كثيرة، فهو حقاً بيتٌ كبيرٌ.

الغرف كلها شبه مغلقة عدا الأولى على اليمين، فهي من يخرج منها النور الخافت الذي نراه بالخارج، وهو بالكاد يضيء البيت من الداخل، نظرت في هذه الغرفة لا يوجد بها شيء غير عادي، كلها مستلزمات رجل كهل عجوز، بعض من ثياب مهلهلة وأواني طعام، سريرٌ صُنع من جريد النخل، لحاف قديم جارَ عليه الزمان، مذياع راديو بالي، الغرفة غير مرتبة بالمرة، هي فقط مكان أُعِدَّ للمعيشة بالطريقة البدائية، الأرض والسقف غير نظيف حتى لمبة

الإنارة الآن علمت لما ضوئها خافت، يبدو أن العنكبوت اتخذت حولها بيتاً. الممر في المنتصف خالٍ تماماً، ولكنّه أيضاً غير نظيف يمكنك رؤية حركة الحشرات والعنكبوت في كل زوايا المنزل بسهولةٍ، الغرفة التي بجوارها على اليمين مظلمة تماماً، والتي بعدها أيضاً، وفي المقابل على اليسار غرفتين مفتوحة الأبواب يصلها بعض من النور الخافت، واحدة يوجد بها ما يحتاجه لأعمال الزراعة والفلاحة في أرضه، فهو لا زال يرعى أرضه بنفسه رغم كبر سنهِ.

لا يكلّ ولا يملّ ولا يطلب العون من أحدٍ، وهذا ما لا يمكن فهمه، كيف يستطيع القيام بكل هذه الأعمال وهو عجوز يتكئ على عصا؟

والغرفة الثانية يوجد بها عدد كبير من أشولة (أكياس) المحاصيل الزراعية، فكل ما تنتجه أرضه يقوم بتخزينه على ما يبدو، حتى أن في بعضها قد ترى حشرات السوس تتحرك أمام عينيك من كثرتها كأنّها جرادٌ منتشرٌ، يوجد أيضاً غرفتين أخريين ولكنهما محكمتا الإغلاق، حاولت فتحهما ولكني لم أستطِع، وبعد عدة محاولات رأيت أنه قد وضِعَ عليهما أقفالٌ محكمة الغلق، وهذا ما يؤكد أن الذي كان يتحدث معه العجوز ليس في إحداهما، إذاً أين هو؟

حاولت التركيز وتحديد الجدار الذي سمعت صوت العجوز من خلفه، فعرفت أنه هناك بالداخل في مؤخرة البيت، نظرت جيداً فإذا بابٍ هناك، يبدو أنَّ هناك غرفة أخرى، ذهبت باتجاهها ولكن بحذر.

فحتماً سأجد من أبحث عنه وكان يتحدث مع العجوز بداخلها، الغرفة بابها مغلق ولكن هناك خيطٌ ضعيفٌ جداً من نورٍ يخرج من أحد فتحات الباب بالكاد تراه، هنا زاد يقيني بل تأكد شكي أن من كان يتحدث معه العجوز هو خلف هذا الباب ولكن من هو؟ اقتربت من الباب طرقته بلطفٍ فلم يُجِب أحد، عاودت طرقه مرة أخرى لكن أيضاً لا مجيب، حدثتني نفسي أنّ مَن بالداخل لا يريد أن أعرفه، ولكني سأفتح الباب وأعرفه.

الباب لم يكن مغلقاً بإحكامٍ، دفعته فانفتح معي بسهولةٍ، ومع أول نظرة لي داخل الغرفة أصابني الذهول!!

يبدو أنني أحلم فمن المستحيل أن تكون هذه الغرفة في هذا البيت البائس، الغرفة رائحتها طيبة كأنّ بها بعض من البخور قد أُشعِلَ فيها.

هي مرتبة جيداً فيها سرير منظم وضع عليه لحاف بحالةٍ جيدةٍ، فيها أيضاً خزانة حالتها ليست سيئة، وفي المنتصف طاولة وضع عليها الكثير من الشموع، تم إشعال واحدة فقط التي تتوسط الطاولة، الأرض إلى حدٍ ما

نظيفة ليست كباقي غرف البيت، السقف والجدران مُحكما الإغلاق، لا أعتقد أنَّ هواءً أو شمساً قد تدخل هنا.

حتى الثياب التي توجد بها كلها نظيفة ومرتبة، ولكن ما يلفت الانتباه أكثر أن موضتها قديمة جداً، وفي أحد زوايا الغرفة يوجد ركن به الكثير من الكتب والأوراق، حالتها ليست جيدة يبدو أنّها منذ زمنٍ بعيدٍ، ما أكدَّ شكي أنّها قديمة وجود بعض من الصحف والمجلات تعود إلى ما يزيد عن ثلاثين عاماً، بعض هذه الكتب ديني وبعضها الآخر لم أفهمه، فيه ما يشبه الطلاسم والصور الشيطانية التي تبث الرعب في نفسك عندما تراها، وكثيرٌ من الأوراق كتبت بخط اليد، ولكن السؤال الذي يدور في ذهني الآن، كيف لهذا العجوز أن يحتفظ بكتب وأوراق هل هو يجيد القراءة والكتابة؟

أنا لا أعرف عنه الكثير، فمنذ أن بدأ عقلي يعي ما يدور حولي وأنا أراه هكذا. حتى مرور السنوات لم يغير كثيراً في عاداته أو شكله.

حاولت جاهداً معرفة محتوى الكتب والأوراق التي كتبت تقلبت سريعاً بينها، فاستوقفني بعض أوراق من كتاب اسمه العزيف، وقد كتب في ورقة بخط اليد في أوله، كتعريف الكتاب ومحتواه.

(هذا الكتاب مشهور جداً في السحر وكاتبه يمني اسمه عبد الله الحظرد وهو عبارة عن مخطوطة سحر من أشد المخطوطات رعباً هدفها الأسمى تحضير أرواح الموتى والتواصل معهم وربما استعبادهم وفيها وصفٌ دقيقٌ لأساليبٍ سحريةٍ عديدة لتقصي الماضي الغامض وإنطاق جثث الموتى وإعادة إحيائها واستحضار الأرواح وكيفية رسم الدوائر والتعاويذ وكيفية تقديم القرابين البشرية)..

جُنَّ جنون عقلي من قراءة هذه المقدمة عن الكتاب، وبدأ الخوف يتملكني في هذه الغرفة وهذا البيت البائس، الآن فقط قد تفهم يا أنا ما سبب هذه الشموع وهذه الطلاسم والرسومات على الطاولة هكذا قلت لنفسي، والشخص الذي كان يتحدث معه العجوز في الغرفة غير موجود لِمَ لا يكون أحد الموتى قد استحضره؟

ووسط خوفي نظرت فإذا بشيءٍ في آخر الغرفة على هيئةٍ بشريةٍ، ولكنه مغطى بغطاءٍ أسود كامل ولا يتحرك، حاولت الحديث معه فلم يُجِبْ، الخوف بدأ يزيد داخلي ولابد أن أخرج من هذا المكان قبل عودة العجوز وقبل أن يصير لي مكروهاً، ولكني حتى إن خرجت قبل عودة العجوز فهذا الشخص المغطى قطعاً عرف من أنا وسيخبر العجوز حال عودته.

فقررت الاقتراب منه أكثر ومحاولة الحديث معه ولكنه لم يُجِبْ ولم يتحرك، الأفكار السيئة تتوالى في ذهني والخوف يتسلل في جسدي ويتملكني، ولكنّي أريد أن أعرف من هو وما الذي يدفعه ليخفي نفسه عني؟

أريد أيضاً أن أتوسل إليه كيلا يخبر العجوز، فاقتربت منه أكثر حتى أصبحت على بُعدٍ قليل منه ومع عدم حركته وتجاوبه معي، قررتُ أن أرفع الغطاء، وعندما رفعت الغطاء عنه أصابني الفزع، فهو ليس بشراً وإن كانت الوهلة والنظرة الأولى تؤكد أنه بشرٌ، هو تمثالٌ بهيئةٍ بشريةٍ ولكنّه لفتاةٍ وليس لرجل، تشعر وكأنها حقيقة، ملامحها قريبة وواضحة، ولكني لا أعرفها، ووضع على يد التمثال صورة فوتوغرافية مبروزة قديمة بخلفيتها البيضاء، يبدو أنها من فترة طويلة لفتاةٍ تحمل طباع هذا المجتمع وأهل هذه القرية، ولكني لا أعرفها ولا أذكر يوماً أنّني رأيتها، وقفت مذهولاً لا أدري ماذا أفعل؟

ومن تكون هذه الفتاة؟ ولماذا يسعى العجوز لاستحضار جثث الموتى؟

وهل يفعل ذلك حقاً أم أنّه لا يجيد القراءة ولا يعرف حتى ما تحتويه هذه الكتب؟

إذاً فمن كتب تلك الأوراق التي كتبت بخط اليد؟

قمت بتغطية التمثال كما هو بعد أن أعدت الصورة إلى يده كما كانت، ورجعت إلى الأوراق والكتب لعلّي أجد فيها ضالتي، هنا سمعت صوت باب العجوز يتحرك ويصدر صوته المرعب، تسمّرتُ مكاني آهٍ لو جاء العجوز في هذا الوقت المتأخر ورآني في بيته ماذا سيفعل بي؟

دارت الشكوك والمخاوف بداخلي سريعاً واستجمعت كلماته عن قتلي عندما رأيته في المقابر، حاولت كتم أنفاسي، واقتربت من باب الغرفة أنظر من ثقبها الذي كان يخرج منه ضوء النور الخافت، نظرت جيداً ولكن يبدو أن العجوز لم يعد بعد، فرأيت الباب يتأرجح، يبدو أن الهواء يداعبه في الخارج ولكن هذه الغرفة المنعزلة لا يصلها شيء.

لا أعلم حقيقةً كم من الوقت مرَّ وأنا في بيت العجوز، ولكن بدأ هاتف بداخلي وكأنه جرس إنذار يخبرني أنه لابد من مغادرة هذا البيت، فحتماً سيعود العجوز لا محالة في أي وقت، فقررت الخروج، لكن عقلي المشتت أخبرني أنني كما لم أراقب العجوز خشية أن يفعل أمراً لا أفهم منه شيئاً كما حدث في المقابر أيضاً دخولي بيته لم يقدم لي شيئاً ولم أعرف الحقيقة وما وراء العجوز؟

فعدتُ سريعاً إلى الكتب والأوراق نظرت فيها، لكن دون جدوى، وبينما أقلّبُ فيها إذا ببعض الأوراق كانت قد كُتبت بخط اليد ووضِعَتْ فوق بعضها البعض، لم تكن بحالةٍ جيدةٍ، وكان مكتوب عليها متى اللقاء لا أريد البقاء. حاولت أن أقرأ فيها ولكن ضوء الشمعة بدأ يتوارى، ولن يعينني، وأنا أخشى عودة العجوز، فقلت لنفسي لما لا أحملها معي وأطلع عليها؟

فحتماً فيها الكثير من الحقائق الخفية. فحملتها وخرجت من الغرفة، أغلقتها كما كانت، وذهبت في الممر حتى وصلت إلى الباب الخارجي الذي كان مفتوحاً على مصراعيه، خرجت متسللاً لم أقم حتى بغلقه خشيت صوته المرعب.

الجوُّ في الخارج هادئٌ تماماً، لا صوت سوى صوت هطول الأمطار يبدو أنّها عادت من جديد وأن هذا ما أخّرَ العجوز، وصوت حفيف الأشجار التي يداعبها الهواء، حتى الحشرات التي نسمعها دائماً لا صوت الآن لها يبدو أن البرد القارس جعلها تعتكف في مساكنها. وفي طريق عودتي إلى بيتي ومعي أوراق العجوز وضعت معطفي على رأسي لأحمي الأوراق من البلل وضمَمْتُها إلى صدري.

وقررت الذهاب من طريق القرية العام الذي يتوسطها، فرغم أنه طريق يحمل الكثير من الأتربة ومؤكد أن مياه الأمطار قد جعلت منه طيناً صافياً، إلا أنه الآمن لي فهذا الطريق لا يسلكه العجوز كثيراً، واحتمال أن يقابلني هنا شبه معدم، وأنا في طريق عودتي في منتصف القرية، كان الهدوء يخيم عليها كعادته ليلاً، حتى أن لمبات الإضاءة انعدمت الآن فجأة وعلى جميع المنازل، يبدو أن هطول الأمطار قد أثر سلباً على أحد أسلاك الكهرباء العامة، ولا أعتقد أن أحدهم سيهتم ويخرج من بيته الآن حتى لو انعدم ضوء القمر.

وصلت إلى بيتي دخلت وسمعت صوتاً في البيت حاولت الإصغاء ولكن دون معاناة هو صوت والدي، يبدو أنّه يدعو الله أو يصلي فهذه عادته فهو دائم الحفاظ على الصلاة، ولكني تعجبت أي صلاة هذه التي يصليها الآن؟

ذهبت إليه وسألته، فقال لي: يا ولدي الدعاء وقت هطول الأمطار مستجاب كما أخبرنا نبينا وكنت أدعي الله أن يحفظكم لي ولا يريني فيكم بأساً، هنا دار في عقلي أن ربما واحدة من دعواته كانت سبباً في تأخر العجوز وعدم مجيئه وأنا في بيته وإلا ماذا كان سيحدث إن وجدني في بيته في وقتٍ متأخرٍ من الليل مثل هذا؟

فقبلت يد والدي ودعوت الله أن يحفظه لي وسألته أتريد شيئاً سأخلد أنا للنوم؟

قال لي: إنّ الفجر سيؤذن بعد قليل قم بتغيير ملابسك وانتظر الصلاة وادعُ الله أن يوفقك فقد اقترب موعد امتحانات عامك الأول في الجامعة.

هنا تملكني التملق والغضب ولكني أخفيته، وقلت في نفسي حتى هذه الكلية وهذه الجامعة كنت لا أحبها ولا أحبذها وأنت من اخترتها لي رغماً عني.

ووسط شرود ذهني سألني أين كنت حتى الآن؟

فقلت: ها.. آه... كنت عند صديقي نحاول استرجاع دروسنا أنت قلت منذ دقيقة الامتحان على الأبواب، وأن ما أخرني هو هطول الأمطار، فدعا لي بالتوفيق واستأذنته بدخول غرفتي.

دخلت وقمت بتغيير ملابسي ووضعت أوراق العجوز على مكتبي واستلقيت فوق سريري، احتضنت بطانيتي لعلّي أظفر ببعض الدفء في هذا البرد القارس، حاولت النوم لكن دون فائدة، حاولت القيام والاطلاع على أوراق العجوز لكنّ الظلام الدامس وانقطاع الكهرباء حال بيني وبينها، فأخذتها من على مكتبي ووضعتها تحت سريري، خشية أن يقوم أحد بالاطلاع عليها

وأنا نائم، رغم أن أحداً لم يفعل ذلك من قبل في أشيائي ولكن من باب الاحتياط.

مر وقت وأنا أتقلب على سريري حتى غلبني نومي لا أعلم متى تحديداً ولكني أعتقد أن شروق الشمس كان قد حان أو اقترب فهكذا تعودت أن تكون مواعيد نومي منذ زمن بعيد، وخلدت في سُبات نوم عميق، يبدو أنني كنت مرهقاً تماماً فلم أستيقظ إلا على صوت أمي وحركتها وهي ترفع الغطاء عني لتخبرني أنَّ اليوم قد انتهى وأنَّ غروب الشمس قد حان، وأنَّ هذه هي المرة الرابعة التي توقظني فيها، كنت أشعر أنني متعبٌ جداً، فآثرت النوم مجدداً، ولكن صوت جدي خارج غرفتي هو ما أيقظني، يبدو أنه جاء لزيارتنا كعادته، وأنا أحبه جداً فكثيراً ما أخبروني أني أشبهه في أشياء كثيرة، وهذا كان فخراً لي، فهذا الرجل محبوب جداً، كما أن له هيبة تظهر جلية في مجالس الفض في النزاعات في هذه القرية والقرى المجاورة. ما سمع عن متخاصمين إلا وسعى جاهداً للصلح بينهم، كان دائماً ما يفعل الخير، كان حليماً وقت غضبه رغم هيبته، فو الله لا يمكن وصفه إلا بأنه رجل تهتز المجالس إذا تحركت عصاه، ويصمت الجميع عندما يبدأ الحديث.

ولكن منذ فترة أصابه المرض وبلغ في جسده مبلغه، ولعلمي بمرضه الشديد فرحت بسماع صوته عندنا فنهضت سريعاً من فراشي لأسلم عليه، اقتربت منه قبلت يده ورأسه كما تعودت، فقال لي مازحاً: لم أنتظر أحداً في حياتي والآن أنتظرك منذ ما يزيد عن ساعة ونصف.

فاعتذرت له وأخبرته أني حقاً لم أعلم بوجوده، كنت نائماً كما الميت. فقال لي: علمت بذلك عندما دخلت عليك علمت أنك مرهق جداً كان واضحاً على نومك وأخبرتهم ألا يوقظك أحد ولكن بما أنك الآن استيقظت هيّا بنا لنذهب إلى الأرض فقد اشتقت لكل شيءٍ هناك.

فقلت له: إنك مريض والطبيب في آخر مرة كنا عنده أخبرنا أنك يجب ألا تتحرك كثيراً، فيكفيك أنّك تحركت من بيتك إلى هنا ولنأجل الذهاب إلى الأرض ليوم آخر.

ولكنه أصرَّ كعادته وأمسك بيدي وهمَّ بالقيام فطاوعته دون جدال لأني مغرم بجلساته التي أعشقها، فمعه فقط رغم فرق السن بيننا إلا أنني كنت أشعر أنه أقرب أصدقائي لي.

وكان كثيراً ما يصحبني معه في المجالس العرفية التي كانت تعقد في القرية.

أمسك بيدي وانطلقنا باتجاه الأرض التي لا تبعد كثيراً عن القرية، وصلنا وهناك تحت تلك الشجرة المحببة لنا جلسنا، كثيراً ما جلسنا سوياً في هذا المكان نتسامر، أسمع منه تارةً نصائح وتارةً أخرى حكايات وتارةً نتبادل الحديث العادي هكذا كانت تمرُّ جلستنا، ولكن حقيقة كانت محببة لي.

هنا دار سؤالٌ بعقلي لما لا أسأله عن أمر العجوز، لعلّه يعرف أشياءً لا أعرفها أنا، وبالفعل أخبرته أني أريد أن أسأله شيئاً، فقال لي: سلْ ما شئت ولكن قبل أن تبدأ قم بإشعال النيران لنحتسي كوباً من الشاي ونحصل على بعضٍ من دفئها.

فقلت له إشعال النيران لا مشكلة عندي فيها، أما الشاي فلن أطاوعك لأن الطبيب أخبرك أنه ممنوع عليك حتى تسترد عافيتك.

فقال لي بابتسامه: يا بني لا خير في عمر ينتهي بكوب شاي، العمر بيد الله وأنا على يقين أنّه قد اقترب جداً، لذا جئت لأودع هذا المكان فالله وحده أعلم إن كان في عمري بقية وسأعود إلى هنا مرة أخرى أم لا.

كلماته كانت مقنعة وصريحة، ولكن صراحتها بطعم الحنظل في مسامعي فأنا حقاً لا أريده أن يموت، حاولت استجماع قوتي ورسمت ابتسامةً مزيفةً على شفتيّ ومازحته قائلاً: ستعيش لتربي لي ولدي بإذن الله، ولكني في قرارة

نفسي أعلم أنني كاذب، فعلامات المرض تبدو عليه ولولا بأسه الشديد وقوته ما استطاع أن ينهض من فراشه.

قمت بإشعال النار ولكن عقلي شارد في كلماته، فماذا لو مات حقاً؟

أحاول أن أخبر نفسي أنها سنة الحياة وأننا كلنا يوماً ما سنكون تحت التراب، ولكن عقلي لا يريد أن يصدق أو إن شئت فقل أن قلبي هو من يرفض ذلك، فأنا متعلق به حد الجنون، فحقيقة كان سداً منيعاً لكل من حاول إيذائي، ووسط شرود ذهني قاطعني قائلاً: كنت تريد أن تسأل عن شيءٍ فما هو؟

استجمعت ذاكرتي التي تشتتت وقلت له: كنت أريد أن أسألك عن العجوز؟

-قال لي باستغراب: أي عجوز تقصد؟

-فقلت: فلان ذلك الرجل العجوز الذي يسكن أطراف القرية.

-فقال لي: وماذا تريد منه؟

-فقلت: لا شيء، فقط شعرت أني لا أعرف عنه الكثير كما أنه لا يشارك أحداً شيئاً فأردت أن أعرف عنه المزيد.

-فرد قائلاً: حالك حال غيرك من كل أهل القرية يا بني، فهو يعيش لنفسه ومع نفسه، الجميع لا يعلم إلا أشياء قليلة عنه.

-فسألته: لمن ينتمي في عائلات القرية؟ فالقرية عائلاتها معروفة ولا أجد أحداً يميل له؟

-فقال لي: من الطبيعي ألا يميل إليه أحد فهو لا ينتمي لأحد منهم.

فاستغربت وقلت: كيف لا ينتمي لأحد وهذه القرية لا مجال لغريب فيها، وإذا كان لا ينتمي لأحد فلمن ينتمي وكيف له أن يسكن قريتنا ويمتلك داراً فيها مثل هذه ومن أين له بالأرض التي يعمل فيها؟

-فقال لي: هذا موضوع قديم جداً يا بني لا أعتقد أن أحداً يذكره أو يعرفه في هذه القرية إلا العجائز مثلي، وابتسم.

-فقلت له: أي موضوع تقصد أخبرني؟

-فقال لي: حقاً لا أذكر كل التفاصيل لأني كنت صغيراً حينها، ولكن ذات يوم جاء رجل كبير وكهل يبدو عليه آثار السفر، لا نعلم من أين أتى ولا من هو، جلس مع أبي طويلاً في ذلك اليوم، وكان معه امرأته وهي امرأة مسنة وشاب كبير وزوجته وطفل صغير ابن عامين وبعد جلسةٍ طويلةٍ استدعى أبي فيها عمي وجلسا طويلاً مع الرجل، انتهى المطاف بأن تم إعداد الطعام لهم، وإعداد مكان لهم للمبيت، وفي اليوم التالي طلب أبي وعمي من شباب العائلة المساعدة في بناء بيت سريع لهذا الضيف في أطراف القرية، كان

الجميع ينفذ دون أي أسئلة فمن يستطيع الاعتراض والمناقشة حينها، وكان هذا اليوم سيكون كارثياً في تاريخ القرية لولا ستر الله. وصمت كأنه يستحضر الموقف.

-فسألته: كيف؟ أكمل.

-فأكمل قائلاً: أثناء البناء شاع الخبر وسط القرية، فحضر كبار رجال وشيوخ العائلات واجتمعوا مع أبي، دقائق وبدأت الأصوات تتعالى بينهم، يبدو أنّ إحدى العائلات ترفض وجود غريب في قريتنا، وتأهبَ شبابُ العائلاتِ، كنتُ أسمع أبي يقول بغضبٍ: هذا الرجل أخي وابنه ابني وحفيده حفيدي، ولن يغادرَ، وليعترضه أحدٌ إن استطاع، وبدأ الجميع يدعو الله أن تمرَّ هذه الجلسة على خير فبإشارة واحدة من رجلٍ منهم سيتمزق الجسد الواحد للقرية وستسقط الرجال قتلى لا محالة، وأبي ما كان ليتراجع عن قراره لو سقطت القرية كلها قتلى، فقد كان عنيداً جداً يا بني، وكأن الله استجاب دعوة أحدهم فبعد جلسةٍ طويلةٍ ونقاشاتٍ حادةٍ، وافق الجميع على استكمال البناء، وسرعان ما تم الانتهاء من بناء البيت، وذهب الرجل وعائلته للعيش فيه، كان كلّ صباح وكلّ مساء يتم إعداد الطعام لهم وإرساله إليهم، بعد فترة ليست طويلة، اجتمع أبي وعمي مع بعضٍ من شيوخ القرية، قرروا خلالها

إعطاء قطعة أرض للرجل يرعاها هو وأسرته وتوفر لهم قوت يومهم كما هو حال أهل القرية جميعهم، مرت أشهر قليلة ومات الرجل الكبير، وفي نفس الشهر تبعته زوجته، بقي الشاب وزوجته والطفل الصغير، وفي هذه الفترة مرض أبي بنفس المرض الذي يصيبني الآن وابتسم مازحاً وقال: يبدو أنها وراثة، واستطرد قائلاً: وقبل أن تودع روح أبي جسده أوصى أن يبقى كلّ شيء أعطاه للرجل الكبير لابنه ولورثته من بعده لعلّها تكون صدقة جارية، وتوفّي أبي وأنا ما زلت طفلاً لكن وصيته أصبحت إلزاماً ولا يمكن لأحدٍ تغييرها، انتهى أمرها إلى الأبد.

مرت سنوات ليست طويلة والأمر كما هو، وذات صباح؛ استيقظ أهل القرية على صوت صراخ، يأتي من أطراف القرية، وسرعان ما وصل الجميع إلى هناك لمعرفة ما حدث!!

الصراخ كان من زوجة الرجل، وعندما اقتربنا من البيت أكثر، كان الرجل ملقىً على الأرض جثةً هامدةً.

لم يعرف أحدٌ السبب حتى الآن، هل تم لدغه أم ماذا!!

حقيقةً لا أعلم.

بقيت الزوجة وابنها الذي لم يكمل العاشرة من عمره، كان الجميع يحاول مساعدتهم في زراعة الأرض، وفي كل أمور الحياة.

مرت الأيام وأصبح الشاب عشريني، وتوفيت أمه وبقي وحيداً، هذا الشاب هو ذلك العجوز الذي، تسأل عنه يا بني.

-فسألته: وهل هذا العجوز تعلَّمَ في إحدى المدارس؟

-فقال لي: نعم كان يذهب معنا إلى تلك المدرسة في القرية المجاورة، وكان ذكياً جداً، متفوقاً.

آاااه.... الآن فقط دار في ذهني أن هذه الأوراق التي كُتِبَتْ هي بيد العجوز.

-سألتُه: وماذا تعرف عن العزلة التي يعيشها هذه؟

-فقال لي: هذه هي أكثر الأمور التي لا أفهمها حقاً يا بني، فقد نشأ وتربى بيننا، كان يلعب معنا ونحن أطفال كما نلعب، يشاركنا السهر والأفراح والأحزان، كان محبوباً، وكان متفوقاً، ووسيماً، الجميع كان يشهد له بحسن الخُلق، لم نسمع يوماً أنه أخطأ بحق أحد، كان خجولاً، وبعد وفاة أمه والتحاقه بالجامعة، كان كثير الغياب عن القرية، لظروف دراسته وبعد انتهاء عامه الأخير بالجامعة، أقمنا له سهرةً جميلةً ليلتها، ولكن يبدو أن هذه كانت آخر ليلة تجمعنا ويشاركنا فيها ونشاركه.

وبعدها بأيامٍ قليلةٍ، وضح التغيير عليه، لم يعد يكلم أحداً، وكأنّه اعتزل الناس، ولم يعد يتواجد في الأفراح ولا الأحزان كما كان يفعل، وكان دائم التغيب، لا تعرف إن كان في القرية أم لا، قليلاً ما تراه، ومع مرور الوقت كانت الأمور تسوء أكثر، حتى ثيابه ووسامته لم تعد كالسابق، تغير وبسرعةٍ، حتى اعتاد الجميع على ذلك، وأصبح بهيئته التي تراه عليها الآن، ولا أعتقد أنّ شيئاً تغير، فهكذا هو منذ سنوات طوال.

بدأ عقلي يتشتت أكثر من أمر هذا العجوز، فإذا كان يشاركم وكان اجتماعياً، إذاً فما سبب هذه العزلة المفاجئة؟ وما الذي حدث جعله كذلك؟ ما قطع تفكيري سوى صوت أنين جدي، فنظرت إليه يبدو أن التعب بدأ يتملكه، أو أنّ شدة البرد قد أثّرت على جسده المريض، فقد غاب ضوء الشمس، وبدأ الظلام.

قمتُ بإطفاء النار، وطلبت منه العودة للمنزل، اصطحبته، وفي طريق عودتنا وأثناء سيرنا سألني: متى ستسافر إلى القاهرة لتبدأ امتحاناتك؟ فأخبرته أن غداً هو الجمعة، سأقضيه هنا، والسبت فجراً سأسافر، فدعا لي بالتوفيق، واستطرد قائلاً: التعب يتملكني يا بني ولا أعلم إن كنا سنلتقي مجدداً أم لا، فاسمعْ هذا الكلام وافهمه جيداً، حاولت أن أمنعه من الكلام لتعبه، ولكنه

ضغط بيده على كتفي وكأنه يأمرني بالسكوت، وقال: يا بني التاريخ لا يذكر إلا الرجال فكن رجلاً، وكن على يقين أنّ هذه الدنيا، ستغتصب الجميع كل منهم على الطريقة التي تليق به، لن تترك أحداً بشرفه الكامل، وأنها ستدفعك يوماً ما للانتقام، فكن كالجمل في صبره وتحمله، وأتقن أسلوب الأفعى جيداً، فهي في لحظات الهوج والموج لا تتحرك، بل تخلد إلي ركنٍ حتى يهدأ الجميع، ويحين الوقت المناسب، فتهاجم فريستها وتنتصر دون عناء، وعليك يا بني أن تكون متسامحاً، قدر المستطاع، ولكن ليس على حساب كرامتك، فالكرامة هي سيرتك التي سيذكرها التاريخ، وإن تعارضت حياتك مع كرامتك فقل أهلاً بالموت، وسيعيش اسمك طويلاً مع كرامتك حتى بعد موتك، إياك يا بني أن تخدعك المظاهر، فالقباحة والنظافة في القلب وليس بالمظهر الخارجي، وصمت.....

وهنا بدأت تظهر عليه علامات التعب الشديد، فاحتضنته، وتوسلت إليه أن يتوقف عن الكلام، ويبدو أن شدة الألم هي ما أجبرته على السكوت.

استند عليَّ وأكملنا مسيرنا باتجاه البيت، وهناك وضعناه على فراشه، وجلسنا جميعاً بجواره، قمنا بإعطائه الدواء.

مرَّ وقتٌ ليس بطويلٍ، واستعادَ بعضاً من عافيته، نظر إلينا وسأل عن تجمعنا حوله؟ وأنا على يقين أنّه يعلم ولكنّه لا يريد أنْ يظهرَ لنا مرضه، فقد كان شديد البأسِ.

ونظر إليّ وسألني: متى تذهب للقاهرة؟

هنا أيقنت أن ذاكرته لم تعد بعافيتها، كما هو حال جسده، فقد سألني نفس السؤال منذ أقل من ساعة، فأسرتها في نفسي، ولم أُرِدْ إحراجه أمامهم -وقلت له: صباح السبت بمشيئة الله.

فقام بإخراج محفظته وأعطاني بعض النقود كعادته، وطلب مني العودة إلى بيتي، وألّا أقلق عليه، وأنَّ شفائه سيكون سببه أن أنجح، وعدته بذلك، وقمت بتقبيل يده ورأسه وانصرفت. كان سواد الليل قد عاد، ومعه هدوء القرية ليلاً، ذهبت إلى بيتي وحاولت استرجاع بعض دروسي، ولكن مرض جدي، وحالته السيئة حال بيني وبين ذلك، مرّت الليلة لا أعلم إن كنت أذاكر أم أفكر أم نائماً؟

حقيقةً لا أعرف.

اليوم التالي كان يوم الجمعة، استيقظتُ، اغتسلتُ وارتديتُ ملابسي، وذهبت إلى مسجد القرية.

وبدأ الخطيب خطبته، وانتهى منها وأنا لا أعرف عن أي موضوع كان يتحدث، فقد انشغل عقلي بالتفكير في عدم تواجد جدي بين الصفوف كعادته، وانشغل بصري في تفقد وجوه الحاضرين مرة تلو الأخرى.

انتهت الخطبة، وصلينا الجمعة وخرجت سريعاً، ولكني أعرف أين قبلتي، قطعاً هي بيت جدي، لأطمئن عليه.

وصلت فوجدتهم جميعاً، وغرفته مغلقة، فسألت بفزعٍ، فأخبروني أن أطمئن هو بخير، فقط شعرَ بتعبٍ شديدٍ بعد الفجر، وفي الصباح ذهبنا لإحضار الطبيب، وكان هنا ذهب لتوه، وأعطاه بعضاً من الأدوية التي جعلته ينام، وطلب منا عدم إيقاظه.

دخلت عليه بهدوءٍ، قمت بتقبيله، وجلست بجواره في صمتٍ، حتى غلبني نومي، وكيف لا أنام وأنا بجوار أشد وأكثر الناس حُبّاً إلى قلبي.

مرَّ الوقت سريعاً أيقظتني حركته البطيئة، يبدو أنه بدأ يستفيق، حاولت الحديث معه، ولكن لا زال التعب يتملكه، فعاد مرة أخرى إلى نومه، هنا أدركتُ أنّه لا فائدة من وجودي. كما أن الوقت بدأ يداهمني، وعليّ بتجهيز حقيبة سفري وكتبي ودفاتري، وأن أهيء نفسي.

ذهبت إلى البيت وقمت بإعداد ما يلزمني، وهيأتُ نفسي، وحاولت النوم لأستيقظ باكراً، فالسيارات التي تذهب إلى القاهرة مباشرة لا تمرُّ إلا فجراً. أما إذا تأخرت فأنت مجبرٌ لا محالة لخوض غمار رحلةٍ مرهقةٍ ومتعبةٍ حد الموت، من موقفٍ إلى آخر ومن سيارة إلى أخرى.

قد لا تصل القاهرة إلا آخر النهار.

بت ليلتي ومع الفجر وجدت أمي توقظني، ومع أول كلام لها أخبرتها أني مستيقظ، توضأت وصليت الفجر وسمعت بعضاً من نصائحها لي مع بعض من الدعوات، فقبلتُ يدها وحملت حقيبتي وانصرفت، انتظرت في الطريق خارج القرية، حتى وصلت سيارة استقليتها، وبدأت الرحلة إلى القاهرة.

السيارة طرازها قديم، تحمل سبعة ركاب فقط، واحد بجوار السائق وستة أفراد في الخلف، وكنت من الستة الذين في الخلف.

لحسن حظي أن رجلاً كبيراً وزوجته، هما من بجواري مما أعطاني فرصة أن أكون بجوار الشباك، وهذا ما أحبه. وجوه الركاب لا تنم عن خير ولا فيها رضا، قد يكون لأنهم استيقظوا من النوم مبكراً، فجميعهم بلا استثناء مجبرون لاستقلال هذه السيارة في هذا الوقت، وخوض هذه الرحلة، فمنهم من هو ذاهب إلى أحد المستشفيات الكبرى، أو ذاهب لزيارة أحد الأقارب،

ويبدو أن الرجل الذي بجواري وزوجته، ذاهبان لزيارة ابنتهما التي وضعت مولودها الأول، هكذا سمعتهما يتحدثان.

والجالس بجوار السائق، هو شابٌ، لا تحتاج إلى عناء لمعرفه سبب سفره، ملابسه العسكرية تدل على أنه يخدم في إحدى قطاعات الجيش.

والثلاثة الذين أمامنا مباشرة، رجلٌ كبيرٌ ضخم الجثة، بجواره فتاة معها دفاتر وكتب، يبدو أنه أباها، وهي تدرس في إحدى الجامعات، وهو مجبر لأن يقوم بتوصيلها خوفاً عليها من خوض غمار رحلة السفر وحيدة، لم ترفع عينيها من على كتبها، وأبوها يبدو أنه يعشق النوم، فسرعان ما علا صوت شخيره أمامي، ورأسه بدأ يتمايل تارة على كتف ابنته، وتارة على كتفِ الرجل الذي يجلس بجواره، والذي كان غاضباً، ولكنه لم يتحدث، كنت ألمح ذلك في نظراته وحركته، مع كل حركة تمايل من رأس الرجل الضخم. يبدو أنّه أحد عمال البناء، وهو مضطرٌ أيضاً للسفر، للبحث عن لقمة عيشه، هيئته وملابسه والأشياء التي كان يحملها تدل على ذلك.

نوافذُ السيارة كلها مغلقةٌ، والجوُّ باردٌ، الجميعُ صامتٌ، فقط صوت الشخير، وما بين الحين والآخر يتحدث الرجل الذي بجواري مع زوجته، ولكن ليس كثيراً.

وكعادتي لا يمكنني النوم في المواصلات، فجلست شارد الذهن، تارةً أفكر في امتحانات قادمة لم أعد لها شيئاً، وتارةً أعود إلى القرية، ومرض جدي، والعجوز وما وراءه، وإنني لابد أن أعرف ما يخفيه العجوز وعلاقته بالقبر، والأوراق والكتب التي يمتلكها، وما سرّ تغيره المفاجئ كما قال لي جدي.

مرَّ وقتٌ طويلٌ وأنا أتقلبُ هكذا بين أفكاري، حتى وصلنا القاهرة حيث الزحام، والأصوات العالية، والطرقات المليئة بالمارة، هنا كل شيء متاح يا عزيزي، لا يوجد أدنى مقارنة بين حياة أهل القرية وبين حياة أهل القاهرة.

أكملت طريقي باتجاه الشقة التي أستأجرُها، أنا وثلاثة من أصدقائي بجوار الجامعة. هي شقة صغيرة في الطابق الرابع، فيها غرفتين فقط وصالة صغيرة وحمام ومطبخ، لا يوجد بها الكثير من الأشياء.

ففي كلّ غرفة سريرين وطاولة نضع عليها كتبنا، وخزانة صغيرة فيها ملابسنا.

جميعنا من محافظات مختلفة، نختلف في الطباع، لم يجمعنا فقط سوى دراستنا.

صديقي الذي يشاركني غرفتي هو متدين، ومن أسرة متدينة على ما يبدو، يظهر هذا جلياً في تعامله، وحفاظه على الصلاة، ومداومته على حضور الندوات الدينية، وهو قليل الكلام، وهذا ما أحببته فيه.

غرفتنا دائماً هادئة. في الغرفة الأخرى؛ أحدهم يختلف كلياً في

مظهره ومضمونه عن المتدين، فمن الواضح أنّه من عائلة ثرية جداً، يظهر هذا واضحاً، في ملابسه، حياته التي يعيشها، حتى في نوع الدخان الذي يتناوله، وما كان يصرفه على المخدرات واللهو، يعادل ميزانية أسرة متوسطة.

ولهذا كان دائم الخلاف مع المتدين، دائماً نقاشاتهم تكون حادة، عبارة عن نصائح يقدمها المتدين، يتملق ويغضب منها الثري.

أما الرابع، فيبدو أنّه من أسرة متوسطة الحال دائماً يتحدث عن هذا، وأنّ والده يقوم بحساب الساعات قبل الأيام لينهي دراسته، وينتهي من مسؤوليته، جميعنا لا يجيد الطبخ، لذا فطعامنا دائماً من المطاعم ولا عناء في ذلك.

فالشارع الذي نسكن فيه يوجد به العديد من المطاعم، والأكلات تختلف من مطعم لآخر.

ومن النادر أن نجتمع ونتفق على طعامٍ واحدٍ فلكلّ منا ذوقه وطعامه المفضل.

مرَّ نهار السبت وبدأ ليله، ولكن شتان الفارق بين الليل هنا والليل في القرية، في الشوارع المضيئة، ومزدحمة، والمطاعم والمقاهي، لا زالت تعمل، تشعر وكأنّه يوم عادي.

ولكن الآن بقي أقل من أربع وعشرين ساعة على الامتحان الأول، ولا وقت لدي لأضيعه. جلست أسترجع بعض الدروس، حتى غلبني نعاسي، نمتُ واستيقظتُ في اليوم التالي، أيضاً لا جديد أحاول استرجاع أكبر قدر ممكن من المنهج، فالأيام الماضية أضعتها مع العجوز.

انتهى النهار، وجاء الليل حاولتُ النومَ، لكن القلق والتوتر وهيبة الامتحان خاصة أنه الأول لي في الجامعة، حال بيني وبين ذلك، فبتُ ليلتي مستيقظاً، أتقلبُ بين دفاتري وكتبي، وفنجان من القهوة يليه آخر، هكذا مرّت الليلة، وجاء صباح الاثنين توضأت وصليت ركعتين دعوت الله فيهما بتوفيقي، كما أوصاني المتدين.

قمت بتغيير ملابسي وتهيأتُ، وانطلقت باتجاه الجامعة، التي لا تبعد عن السكن كثيراً. وعند دخولي من باب الكليّة شعرتُ أنّني في مجتمعٍ آخر، ولِمْ لا؟

فهو مجتمع مصغر للمجتمع الخارجي، فهنا جميع الثقافات، والعادات، والأشكال، والألوان، حتى جميع الطبقات الاجتماعية، التي تتفاوت في الخارج هنا تتساوى.

فهنا تجد من هو مهتمٌ بالمسرح ينتمي ويقترب من جماعة النادي الثقافي، ومن له ميول دينية يجلس بجوار مسجد الكلية، وداخله حيث حلقات الذكر وهناك المقاهي قد ازدحمت بالعشاق، وهناك من له ميول رياضية.

حقاً الجميعُ هنا مختلفٌ، ولأنّ الطيور على أشكالها تقع، تجد كلّ من يحبّ شيئاً ويميل إليه، سريعاً ما يدخل في سربه، دون عناء.

سرعان ما مرَّ الوقتُ وبدأ الامتحان، قرأتُ ورقة الأسئلة، الأمور إلى حدٍ ما مقبولة، فكل ما فيها قرأت عنه الليلة الماضية، حاولت الهدوء وبدأت بالإجابة شيئاً فشيئاً، حتى انتهيت منها كاملةً، فحمداً لله. يبدو أن إحدى دعوات جدي أو أمي تقبلها ربي.

خرجتُ وأنا في قمة سعادتي، ولِم لا؟

فاليوم الأول قد مرَّ على خير.

ذهبت إلى حيث أسكن، دخلت وقمت بتغيير ملابسي واستلقيت لفوري على سريري، فالإرهاق وعدم النوم ليلة أمس، جعل النعاس يتملكني،

وسرعان ما غفوت، لم يوقظني سوى صوتٌ قويٌّ، وكأنَّ زلزالاً قد ضرب الشقة، أشياءٌ تتكسر، وهرجٌ ومرجٌ، وأصواتٌ لا تفهمها من سرعتها وعلوها واختلاطها، خرجت من الغرفة فزعاً، لأعرف ماذا يحدث في الخارج!! فوجدت المتدين والثري، واقفين عند باب الغرفة الثانية، وكأنّهما لأول مرة يتفقان، فالمتدين يأمر الثري بجلب أشياءً له، والثري سرعان ما ينفذ، والمتدين يُحكم قبضته على باب الغرفة، فسألتهم ماذا يجري هنا؟

فقال لي المتدين وهو متوترٌ: لا أعلم بالتفصيل.

ولكني رأيته بعينيّ يحاول قتله بسكين المطبخ، ويكسر عليه كلّ شيءٍ يأتي أمامه، حالته سيئة، يبدو أنه أصابه الجنون، عيناه حمراوان، وكلامه غير مفهوم، وبفضل الله بعد عناءٍ أنقذته من يديه، وأحاول إغلاق الباب عليه حتى لا يفعل شيئاً آخر.

قلت في نفسي ما هذا الأسبوع البائس؟ أأترك العجوز في القرية لأجدك هنا يا صديقي.

وسألت الثري: لماذا يفعل معك ذلك، هل دار شيءٌ بينكم؟

فقال: لا... وصمت.

من نظرتي في عينيه علمت بأنّه كاذبٌ، ولكن ما أوقفني عن معاودة الأسئلة، أنني وجدت دماءً تسيل من يده، فأخذته إلى غرفتي وحاولت تضميد جرحه، لم يكن كبيراً ولا مقلقاً.

تركته في غرفتي وخرجت أرى المتدين، فوجدته لازال يحكم قبضته على الباب بقوة، يستغفر الله ويدعو هكذا يفعل دائماً.

وقفت صامتاً، وبعد مرور دقائق، هدأ الصوت وهدأت أصوات الأشياء التي كان يكسرها بالداخل.

اقتربت من المتدين ودون كلام حاولت فكّ يده من عن مقبض الباب، ولكنّه من شدة خوفه، شعرتُ وكأنّ يده تسمّرت بالباب.

فأحضرت كرسياً خشبياً، ووضعته له كي يستريح، مادام يخشى ترك المقبض، ووضعت يدي على رأسه بكلّ هدوءٍ حتى يشعر بالأمان، وبالفعل جلس، تركته وعدت إلى غرفتي، أغلقتُ البابَ،

-وقلت للثري: ماذا حدث بينكم؟ الأمور لا تتحمل الكذب والخداع، علينا فهم كلّ شيءٍ ليتسنى لنا إيجاد حلٍ قبل أن تسوء الأمور.

-فقال لي: سأخبرك، انتهى الامتحان وعدت إلى هنا منذ ساعة تقريباً، غرفتك كانت مغلقة، فتحتُ غرفتي ودخلت فوجدته جالساً يتحدث في

الهاتف، يبدو أنّه كان يتحدث مع أهله، كان غاضباً جداً، وبعد أن أغلق هاتفه، طلبتُ منه أن يهدأ فلا شيء يستحق، فسألني عن حال الامتحان معي فأخبرته أنّي غير مكترثٍ وليكن ما يكن، وسألته: وماذا عنه، فرد قائلاً: كان زفتاً.

فأخبرته أن ينسى أمر هذا الامتحان وعليه التركيز فيما هو قادم.

وقمت بإشعال سيجارتي كعادتي، وأنت تعرف أني أتعاطى المخدرات، فقمت بإعداد واحدة وهو كثيراً ما رآني أتعاطاها، ولكن هذه المرة طلب مني إعداد واحدة له، فاستغربت وضحكت وقلتُ له: أنت لا تتعاطى، ولكنّه أصرَّ فأعددت له واحدة معي، لم يكتفِ بها وأخذ معي الثانية، جلسنا ما يزيد عن نصف ساعة نتعاطى المخدرات، وفجأة قام عليَّ هكذا متهجماً يسبني ويحاول ضربي، ويسب أباه لأنه لا يوفر له المال مثل أبي، ظلَّ هكذا يتحدث ويفعل وأنا أحاول تهدئته ولكن دون جدوى، حتى حال المتدين بيني وبينه.

شرد ذهني بكلامه، وقلت لنفسي الآن فهمت لماذا دعانا ديننا إلى التواضع، فلو أن الثري راعى مشاعر صديقه الفقير، واتقى الله في تصرفاته ما حمل له كل هذا الحقد وهذا العداء، وأيقنت أنّنا لابد ألّا ننخدع بالمظاهر كما أخبرني

جدي، فلو نظرت إلى تعامل الفقير مع الثري قبل ساعة، لتوهمت أنّهما رفاق الدرب وأحباب. ولكن سرعان ما عدت إلى رشدي، وسألته بتهجمٍ:

-بما أنك خبير في المخدرات ما الحل الآن؟

-فقال لي: هناك نوع من الحبوب، أُعدَ خصيصاً لهذه الحالة.

-فسألته: أتعرف اسمه؟

-فقال: نعم

-قلت له: إذاً اذهب وأحضره بسرعة.

فوافق على الفور، وبعد أن تحرك خطوة والثانية توقف!

-فسألته: ما بك؟

-قال: إن نقوده كاملة في غرفته، فقلتُ لا مشكلة، وأعطيته النقود التي طلبها وذهب سريعاً.

عدت إلى المتدين، وضعت يدي عليه ليطمئن.

-فسألني: ماذا يجري؟

-فقلت: لا شيء اطمئن ستكون الأمور على ما يرام، صمتنا ولكن علامات الخوف والتوتر ظاهرة على المتدين، وهذا ما أستغربه فيه!!

فرغم تدينه إلا أنّه قليل الحيلة، وقلبه ضعيف أقل الأشياء قد تجعله يخاف وبشدة، حتى أني سألت نفسي ماذا لو كان مكاني ورأى العجوز ليلة المقابر، أو دخل بيته ورأى ما رأيت؟

أنا على يقين لو أن صديقي المتدين يعيش في قريتنا لماتَ خوفاً من طرقاتها ليلاً.

لم يمر كثيراً، وحضر الثري ومعه الأقراص بيده، فأخذتها منه وطلبت منه إحضار كوب ماء، حاولت فتح الباب ولكن المتدين يرفض، يريد أن يفهم أولاً، فأخبرته أنّنا لابد أن نعطيه تلك الأقراص، وسرعان ما سيكون بخير، وافق ولكني أعلم أنه لا يزال خائفاً.

فتحت الباب وإذا بالفقير ملقىً على الأرض، كأنّه جثة هامدة، يداه متصلبة، ووجهه على الأرض، ولكن أنفاسه واضحة وقوية، هو حيٌّ ليس ميتاً، لا داعي للخوف.

حاولنا إعطاءه الأقراص، وبعد معاناة نجح الأمر، ولكن تصلب أطرافه، أجبرنا أن نتركه مكانه، فالمتدين خائف، ويد الثري بها جرح، وأنا لوحدي، لن أقوى على حمله بهيئته هذه.

مرَّ وقتٌ ونحن صامتون جميعاً، والفقير ملقى على الأرض لم يستفِق بعد.

الدقائق تمرُّ وكأنها عقوداً، وصوت المتدين هو ما يقطع صمتنا بين الحين والآخر، يطالبنا أن نذهب به لإحدى المستشفيات.

ولكنّي خائف من رد فعلهم هناك، فماذا لو عرفوا أن هذا تأثير المخدرات؟

قد تكون بداية هلاكنا، والدخول في طريقٍ لا قبل لنا به.

وما جعل المتدين يطلب ذلك مراراً وتكراراً، هو أنّه لا يعرف بحقيقة الأمر، وأنا لا أريده أن يعرف.

على يقينٍ أنَّ شجاراً حاداً سيشبُ بينه وبين الثري إن عرف بحقيقة الأمر.

مرَّ ما يقارب الساعة، ولا جديد فالفقير ملقى على الأرض ولم يستفِق، لكن عاد جسده إلى طبيعته، لم يعد متصلباً، أيضاً أنفاسه باتت تخرج طبيعية، فسألت الثري: وماذا الآن؟

-فقال: بعضٌ من الماء نلقيه عليه.

فوافقت وسط تعجب المتدين مما نفعل.

وسرعان ما أحضر الماء وسكبه على وجهه وجسده، وبالفعل كان خياراً ناجحاً، فقد بدأ يستفيق، ولكن كثرة نومه على الأرض منذ ما يقارب الساعة، والماء الذي سُكبَ على وجهه وملابسه، جعل منظره مزرياً، يجعلك تحمد الله على نعمة العقل، وتحرّم المخدرات على نفسك حتى لو لم يحرّمها الدين.

بعد دقائق قليلة استفاق، ولكن قوته مازالت منهارة، حملناه بسهولة ووضعناه على سريره، وقمنا بتغيير ملابسه الخارجية.

في هذه الأثناء كان عقله قد استفاق كلياً، فسأل باستغراب: ماذا حدث؟

بدأ المتدين بالحديث، ولكنّي أردت أن أقاطعه، فقلت سريعاً: لا شيء فقط أصابك بعضٌ من الإغماء، يبدو أن سببه الإرهاق والسهر ليلة البارحة، نظر لي المتدين باستغرابٍ ولم يتكلم، ولكن يبدو أنّه فهم إن الفقير لا يذكر شيئاً مما حدث، وأنا لا أريده أن يذكر.

-فقال الفقير: أشعر أنني جائع.

-وعلى الفور سأله الثري: ماذا تريد أن تأكل؟

-فقال: أي شيء لا مشكلة.

قام الثري بإحضار نقوده، وطلب أن ننتظره سيعود سريعاً بطعام لنا جميعاً، فهو يريد أن نأكل سوياً.

خرج مسرعاً، وطلبت من المتدين أن يساعد الفقير في تغيير ملابسه، وإعادة ترتيب هيئته من جديد، وكنت أنا أحاول ترتيب الأشياء التي تبعثرت.

لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى حضر الثري ومعه الكثير من الطعام، وجلسنا جميعاً حول الطعام، كانت هذه واحدة من المرات القليلة التي اجتمعنا فيها على طعامٍ واحدٍ.

انتهينا من طعامنا، وطلب منا الثري الذهاب إلى أحد المقاهي، لاحتساء بعض المشروبات، ومشاهدة إحدى المباريات الهامة في دوري أبطال أوروبا، وما أدراك ما دوري أبطال أوروبا؟

إنّه جنون العظمة.

فوافقت على الفور، فأنا شغوف جداً بهذه المباريات، فهي أشبه ما تكون بالحروب.

أذكر أنّني كنت أسير كثيراً ليلاً وسط الظلام، في الطرق الزراعية ووسط الأراضي، غير مبالٍ لأيّ معاناة أعانيها في الطريق لأشاهد واحدة من هذه المباريات، خاصة عندما يتعلق الأمر بالملكي مدريد، ذهبنا إلى أحد المقاهي وهو قريب.

جلسنا وتابعنا الشوط الأول ولكن يبدو أن الفقير والمتدين لا تروق لهما جلسة المقاهي والمباريات، خاصة أن موعد بث هذه المباريات يكون في وقتٍ متأخرٍ من الليل، فاستأذنوا وانصرفوا.

ولكني قررت إكمال المباراة، فما زال هناك متسع من الوقت على الامتحان القادم.

انتهت المباراة وعدنا إلى حيث نسكن، استلقى كلٌّ منا على سريره، وذهبنا في سبات نومٍ عميقٍ.

في اليوم التالي، استيقظت من نومي صليت وقمت بإعداد كوبٍ من الشاي، فهذه عادتي عندما أستيقظ، وأحضرت دفاتري وكتبي، وبدأت الإبحار فيها، محاولاً قطع شوطٍ كبيرٍ في استرجاع ومذاكرة ما تحتويه، استعداداً لامتحانات الأحد القادم.

مرَّ وقتٌ طويلٌ وأنا هكذا، حتى حان وقت صلاة العشاء، قمتُ بالوضوء والاغتسال، وذهبتُ إلى مسجد بجوارنا، صليت وعدت لاستكمال دروسي.

وبينما أنا هكذا، إذا بهاتفي يهتزّ نظرت فيه فإذا هو أخي، شعرتُ أنّ هناك أمرٌ مهمٌ فهذه ليست عاداته أن يحادثني فهو رغم تفوقه وحبّه لي إلا أنّه لا يشبهني كثيراً.

رددت عليه، وإذا به يخبرني أن جدي في حالةٍ سيئةٍ جداً وقد طلب رؤيتي، وأنّه الآن في إحدى مستشفيات المحافظة، والتي تبعد عن قريتنا كثيراً، وأنَّ الأطباء أجمعوا على حجزه، وعدم مغادرته المستشفى، وقال لي أيضاً: أنّ أحد

الأطباء المقربين له، أخبره أنّ الأعمار بيد الله، لكن حالته متأخرة جداً قد لا ينجو منها هذه المرة.

كلمات أخي كانت كسهمٍ انطلق منذ مائة عام، ولازال يحتفظ بقوة انطلاقه، أصاب صدري، واستقر في أعماق قلبي.

اسودت الدنيا في عيني، لم أعلم حتى متى أغلق الهاتف أو ماذا قال بعدها.

أريد السفر الآن، ولكن كيف السبيل لذلك؟ الوقت أصبح متأخراً، وإن ساعدتني المواصلات هنا، فلن تساعدني في المحافظة؟

أنا مجبرٌ على الانتظار حتى الصباح لا محالة، بت ليلتي لا أعلم كيف مرّت؟ الدقائقُ تمرُّ وكأنّها السنين، النوم خاصم عينيّ، عقلي لا أعلم إن كان يفكر أم أصابه المرض وتوقف، قلبي مقبوض، لساني لم يعد بإمكانه النطق بكلمةٍ، أشعلُ سيجارة تلو الأخرى، أحتسي فنجاناً من القهوة، يليه كوباً من الشاي، أنظر إلى هاتفي أعدُ الدقائق التي لا تمرّ، أحاول الاتصال بأخي من فترةٍ لأخرى لكن لا جديد، فجميع من ذهبوا معه ومنهم أخي خارج المستشفى، وهو الآن محتجز بداخلها.

لم أذكر يوماً أنّي انتظرتُ أن يأتي الصباح مثل هذا اليوم.

بدأ شروق الشمس على استحياءٍ، تركت كل شيء كما هو.

سريري غير مرتب، أوراقي ودفاتري وكتبي على الطاولة كما هي، وارتديت ملابسي وخرجت.

بدأت رحلة العودة إلى القرية، وكدت أن أفتعل المشاكل في الطريق مع السائق أكثر من مرة، وأنا أطالبه بزيادة السرعة، كلماتي حادة، وعيناي بدأ يظهر عليهما الاحمرار، التوتر، والخوف، والقلق، والحبّ، والاشتياق، والحزن، اجتمعوا في خلاط جسدي، وظهر منهم خليطاً لا يمكن فهمه.

بجواري امرأة مسنة كبيرة، لم أشعر بها إلا وهي تضع يدها على رأسي تميل بها إلى كتفها، آاااهٍ من لحظة الحنان هذه، شعرت وكأنّها أمّي رغم أن هذه أول مرة أراها فيها.

ويبدو أن حالتي هي ما جعلتني أشعر بذلك فأنا في أمسِّ الحاجة للمسة احتواءٍ الآن.

لم تتحدث معي كثيراً، ولكن يدها التي وضح الانكماش على جلدها تداعب شعري بين الحين والآخر.

كل ما أذكره أنها قالت: يا بني أياً كان ما حدث، وتذهب إليه، تذكر أن أقدار الله كلها خير، وأن القدر لا يمكن تفاديه، فقط قل وردد الحمد لله،

واستغفر ربك كثيراً، وستكون الأمور كلها بخير، هي محقة، وحنانها جعلني أردد ما قالت.

وصلنا إلى موقف المحافظة، ومنه سريعاً استقليّت سيارة أخرى إلى المستشفى، وصلت هناك، شعرت للحظةٍ أني أخطأتُ طريقي وذهبتُ إلى القرية، فرجال القرية جميعهم وشبابها، حتى بعض من النساء كانوا حاضرين، منهم من جلس في المقاهي، ومنهم من افترش الرصيف خارج أسوار المستشفى، ومنهم من بقي بداخلها.

هم عبارة عن مجموعات، ولكن وجوههم لا تبشر بالخير، الوجوه شاحبة، كلماتهم متقطعة، يشوبها الهمس، الأمر غير مريح.

دخلت مسرعاً من باب المستشفى فهي كبيرة، وفي الفناء وجدت الكثير منهم، مع حركة غير طبيعية، سرعة حركتهم، وانفعالاتهم، وأصوات هواتفهم التي لا تهدأ، والابتسامة التي مُحيت من على شفاههم، كلها بوادر ولكن بوادر لا تبشر بأي خير.

حاولت دخول القسم المحتجز فيه، لكن عناصر الأمن منعتني وبشدة، دار نقاشٌ حادٌ بيني وبينهم، لكن لم يسمحوا لي، وبعد أن تعالت أصواتنا، اقترب مني خالي وأخي وعمي، حاول بصمت أن يأخذني بعيداً قليلاً.

وهنا قال لي خالي: اسمع ما سأقوله جيداً، جدك الآن في ذمة الله، جميعنا قلوبنا محترقة، ولكن علينا بالتزام الصمت، فالقانون هنا في المستشفى، ينص على تشريح الجثث التي توفيت هنا، ونحن الآن نسعى جاهدين ألّا يحدث ذلك، هناك وساطات كثيرة تتدخل بالموضوع، فاهدأ كيلا ينقلب الأمر على رؤوسنا.

كلماته لم تسكتني فقط بل أخرستني، شعرت أنّها لم تكن في مسامعي، بل سهام بها سمٌّ زعاف، وبرأسها نار استقرت في صدري.

فأصبح جسدي ثقيلاً لا أقوى على تحريكه.

فاقترب مني بهدوءٍ، وضمني إليه، شعرت أنّ قلبه لا يصدر نبضاً، وإنما جمراتٍ من نار.

قلت في نفسي إنه محق لابد أن أهدأ، ولكني تمتمتُ كلماتٍ بصوتٍ عالٍ سمعه هو؛ لا تسمح لهم بتشريح الجثة أرجوك، فرد قائلاً: لن يحدث ولو كلفنا الأمر ألف جثة بجواره الآن، فقط تماسك واهدأ، ولا تخبر أحداً في الخارج بحقيقة الموت، حتى لا ينفضح الأمر.

مرَّ وقت ليس بطويلٍ، وبالفعل استطاعت الوساطات حلَّ الأمر، ستخرج الجثة بعد دقائق، وتنقلها سيارة إسعاف إلى القرية، وهم بحاجة إلى أحدنا يكون معهم.

هنا بحدة قلت لخالي سأكون أنا معهم، فوافق دون جدال، بعد أن نظر في عيني.

وبدأت سيارة الإسعاف بالتحرك، كان لا يزال بملابسه التي خرج بها من البيت، شعرت وكأنه نائم، وجهه أبيض رغم سمار لونه، يداه باردتان شعرت بذلك عندما قمت بتقبيلهما،

آاااه.... لا أصدق أنك الآن ميت، ولا تستطيع الحديث معي، أخبروني أنك كنت تريد أن تراني...

هكذا كنت أحدث نفسي طوال الطريق.

وصلنا إلى القرية بعد أذان الظهر مباشرة، أصوات النساء تتعالى بالصراخ والنحيب، القرية كلها وبعض من أهالي القري المجاورة حاضرون أمام البيت، قاموا بإفساح الطريق لنا بعد معاناة، فالكل يريد أن يلقي عليه النظرة الأخيرة.

أدخلناه غرفته التي دائماً ما كان يجلس فيها، يتكئ في جلسته ويتحرك كيفما شاء، أما هذه المرة فهو مستلقٍ على سريرٍ لا يتحرك.

أغلقوا الباب ولكني أصريت أن أبقى بجواره لن أتركه..

جلست بجواره ولا أعلم أين ذهب دمعي؟ يبدو أنه تحجّر في عيني.

مرَّ وقتٌ ليس بطويلٍ وأنا بجواره، وإذا بباب الغرفة يفتح، كان خالي ومعه رجل لا أعرفه جيداً.

لكن يبدو عليه الهيبة، في ملابسه وملامحه، كان معه الكفن وبعض العطور وأدوات الغسل.

علمتُ فيما بعد أنه أحد كبار وشيوخ قرية بجوارنا، وكان صديق جدي المقرب، وأنهم في إحدى جلساتهم، تعاهدا على أن يشتري الكفن وهذا العطر من عاش منهم ليشهد موت صديقه، وأن يكون أحد المغسلين، وأن يكون آخر من يخرج من القبر عند الدفن.

وها هو الرجل جاء لينفذ وعداً قطعه مع صديقه في جلسةٍ وديةٍ، لم نكن نعرف عنها شيئاً.

وإن الله شهيد على كلامه، وما جعل الجميع يصدق كلام الرجل، دون أي اعتراض، هو كبر سنه، وهيئته وهيبته، فهو حقاً ليس أهلاً للكذب في موضوعٍ كهذا.

الآن فقط علمت معنى أن يكون لك صديقاً وفياً.

بدأ الغسل الذي كنت فرداً فيه، مع الرجل الكبير وخالي وأحد شيوخ الدين من قريةٍ مجاورةٍ، الجميع يشهد له بالخير والصلاح، وكانت هذه أول مرة أحضر فيها تغسيل ميت، ومَن؟

إنه أقرب المقربين إلى قلبي إن لم يكن هو قلبي، انتهينا من تغسيله، ووضعناه في كفنه، لم يبقَ ظاهراً منه إلا رأسه، ليدخل الأقربون إليه من بناته وأولاده، ليلقوا عليه نظرة الوداع والنظرة الأخيرة.

آاااهٍ من كلماتهم، كل منهم يدخل على حدة ويقول جملة، وكأنه يتفنن في تمزيق القلب.

ولكني على يقين أني أحمل من الحزن ما يعادل، إن لم يفُق حزنهم جميعاً.

وسرعان ما قام الرجل بتغطية وجهه، وإتمام إغلاق الكفن، إنها لحظة الموت لي، وكيف لا؟

وهي نظرتي الأخيرة والأبدية إلى وجهه، حملوه وخرجوا به، المشهد في الخارج يجعلك تفقد صوابك، أصوات النساء يتعالى بالصراخ والنحيب، ورجال ملؤوا الطرقات، ليسوا أهل القرية فقط، بل هناك وجوه كثيرة غريبة حاضرة.

حملناه إلى المسجد لأداء صلاة العصر عليه.

المسجد امتلأ عن آخره، لا مكان لقدم، حتى الشوارع التي تحيط بالمسجد، والأعداد مازالت تتزايد.

صلينا عليه وحملناه إلى المقابر، التي لا يوجد موضع لقدمٍ تضع رجلك فيه، يا الله.... ما هذا العدد، ومن أين أتى كل هؤلاء الناس يودعوك؟

تم دفنه وكان آخر من خرج من القبر هو صديقه الذي أحضر له الكفن والعطر وغسله تنفيذاً لوعده.

تم إغلاق القبر جيداً، وبدأ الجميع في الذهاب سريعاً لتحضير مراسم العزاء وإلا سيكون الأمر مخزٍ ويدعو للإحراج، فالقرية من الآن مكتظة ومليئة بمن حضر، فما بالك عندما يحلُّ الليل؟

رحل الجميع، ولكني آثرت أن أظل معه وأكون وفياً له كصديقه، فكما كان آخر من يخرج من القبر، أردت أنا أيضاً أن أجلس معه في وحدته لأول مرة،

لعلّه يطمئن أو يشعر أني بجواره، كما كان دائماً يشعرني أنه بجواري وقت ضعفي ووحدتي.

ولكن أخي وصديقي وابن عمي بقوا بجواري؛ فهم يعلمون كم أنا متعلق به، وخافوا أن يصيبني مكروهٌ من جلستي في المقابر وحيداً.

لم يتركوني كثيراً كما أردت، ومع ضغط طلباتهم لي بالرحيل، وافقت وقلت في نفسي: سأعود قريباً إليه.

وبينما أهمُّ بالرحيل معهم، إذا بي ألمح العجوز لازال يجلس ولكن هذه المرة عند باب المقابر، ولا ينظر إلى القبر كعادته!!!!!.

هنا دارت ذاكرتي كما شريط فيديو مصور، فاستجمعت الليلة التي قابلت فيها العجوز عند القبر يتمتم، وكلامه في منزله مع شخصٍ لم أجده، وكُتب السحر والطلاسم، لتقصي الماضي الغامض، وإنطاق جثث الموتى، وعزلته....

هنا بدأ الغضب يتملكني، فأيّ ما كان يخفيه العجوز وحتماً سأعرفه، إلا أنه نذير شؤمٍ لأهل المقابر، ولا يجب أن يكون هنا اليوم.

ذهبت إليه مسرعاً، وقفت على بعد خطوة منه، كان ينظر إلى الأرض، ويضع رأسه بين يديه اللتين يضعهما على عصاه التي يتكئ عليها.

ودون مقدمات طالبته بالرحيل من هنا الآن، لم يجِبني، جثوت على ركبتيّ لأكون قريباً من وجهه، كانت هذه هي مرتي الأولى في حياتي التي أراه عن قرب وبوضوح، لم يرفع رأسه ولكن شعره الخفيف الأبيض في لحيته، وحاجباه الكبيرتان بشعرهما الكثيف يغطي عينيه، التجاعيد تبدو واضحة على وجهه...

وبصوتٍ أعلى وفيه حدة أكثر طالبته مرة أخرى بالذهاب من هذا المكان، فاقترب أخي مني قائلاً: مالنا وماله دعه وشأنه، وهيّا بنا من هنا، فهذا الرجل أتوجس منه خيفة ولا أحبه.

فقلت ولا أعلم كيف قلتها أمام العجوز؛ وماذا سيفعل بي فليفعل ما يشاء، أقصى ما يمكن أن يفعله بي هو موتي، وهو أحب الأشياء إلى قلبي الآن.

ومددت يدي وجذبته بعنفٍ ليقوم من مكانه، كاد أن يسقط أرضاً، فرفع حاجبيه ببطءٍ، شعرت وكأنه يعاني من رفعهما كأنه ليس في وعيه، أو به طائف من المس، ونظر لي بعينه الحمراء نظرة لم تطل، فسرعان ما أُطبقت حاجباه على عينيه مرة أخرى، فلم أعد أرى عينيه، لم يتحدث، ولكنه أومأ لي برأسه مرتين، لم أفهم ماذا يقصد بهما؟

ولكن حقيقةً أصابني الخوف للحظاتٍ، وذهب هو في طريقٍ لا نسلكه نحن.

عدت إلى القرية، المشهد هناك وكأنه يوم الحشر، عدد الحاضرين أكثر بكثير من الأماكن المخصصة للعزاء، دار العزاء امتلأت لآخرها، وجميع البيوت تم فتحها لمن جاء يقدم واجب العزاء، لكن دون فائدة، فالأعداد تتزايد وبقوة، رجالٌ ونساءٌ من جميع القرى المجاورة، حقاً لم أكن أتخيل أنه معروفٌ، ومحبوبٌ لهذا القدر من الناس.

زيادة الأعداد دفعت أهل القرية للاستعانة بالأرض الزراعية التي تحيط بالقرية، وقاموا بتجريف قطعةٍ كبيرةٍ من الأرض، وسرعان ما قام شباب القرية بتسويتها، ووضعوا فيها الكثير من الكراسي وقطع الفرش ليجلس الناس.

أيضاً الضغط على الكهرباء والخوف من انقطاع التيار، دفعهم للاستعانة بالمولدات الكهربائية، فهذه إحدى ليالي الشتاء وانقطاع الكهرباء وارد.

وبالرغم من أنّها ليلة شتاء، إلا أنّك تشعر بدفءٍ وكأنّك في منتصف تموز من كثرة الحاضرين.

بعد صلاة العشاء بدأ يزيد عدد الحاضرين، التزايد مستمر وملحوظ بقوة، القرية لم تشهد يوماً زحاماً مثل هذا، وعلى يقين أنها لن تشهد مثله بعد.

كنا نحن في مقدمة الصفوف نستقبل العزاء ممن حضر، وجميع أهل القرية حقاً حاضرون يقومون على خدمة من حضر.

المشهد كان مزدحماً حتى أن بعض الذين حضروا، كان يكتفي بالمرور بين صفوفنا يقدم واجب العزاء ويرحل دون أن يجلس، فلا مكان متاح لجلسة.

وبعد مدة شعرت بدوار في رأسي، فعدم النوم والسفر والحزن، وعيناي التي أصبحتا حمراوين صافيتين الآن، كل هذا دفعني لأن أترك الصف بين أهلي وأنزوي في زاويةٍ بجوار العزاء.

جلست وإذا بي أرى العجوز يجلس ولكنه وحيداً كعادته بعيداً عن العزاء.

لم أعِره أي اهتمامٍ فقد كنت منهكاً بالقدر الكافي، وإن كنت في نفسي أفضّل أن يذهب من هنا.

دقائق وإذا بأخي يأتي مسرعاً ومعه شخص، ليخبرني أن ديزل المولدات قارب على النفاد، وأنهم بحاجةٍ لشخصٍ يجيد القيادة، يذهب مع هذا العامل إلى القرية المجاورة والتي لا تبعد عنا كثيراً فقط حوالي خمسة كيلو مترات ليحضر الديزل، فقلت له: سأذهب أنا معه.

ولكنه نظر إلى عينيّ الحمراوين، وجسدي المنهك، وحاول إقناعي أن أجد شخصاً غيري، لأن القيادة بحالتي هذه، وفي طريق مثل طريق قريتنا، هو ضربٌ من الجنون.

هو محق، ولكني قلت: وماذا سيحدث؟ سأموت!

وما المانع فأنا لست مبالٍ الآن. أخذت العامل واستقلّيت السيارة وذهبنا إلى بيته في القرية المجاورة. وصلنا إلى بيته، أوقفت السيارة بالقرب من البيت ونزل هو ليحضر الأشياء التي يريدها، وانتظرته في السيارة، ولأنها كثيرة نزلت أساعده في وضعها بالسيارة، وإذا بامرأة عجوز مسنة، عمرها يتخطى الثمانين، تجلس في مقدمة بيت بجوار بيت العامل، سألته ماذا تفعل وأين أنت ذاهب؟

-فقال لها: أحضر أشياءً تخص عملي، وذاهب إلى القرية الفلانية التي بجوارنا.

-فقالت له: إذاً لي عندك طلب؟

-فقال لها: اطلبي.

-فقالت له: هناك رجل في هذه القرية اسمه فلان ابن فلان، أريدك أن تسأل عنه، ولن تجد عناءً في ذلك، فهو رجل معروف هناك.

وقعت الكلمات كالصاعقة على مسامعي، فالرجل الذي تسأل عنه، هو جدي المتوفي اليوم.

-فسألتها: أتعرفينه يا أمي؟

-فقالت: نعم يا بني فهو ولدي!!!

-استغربت قائلاً: كيف يكون ولدك؟ فهو جدي، وأمه أعرفها.

فضحكت وقالت: ليس ولدي الذي أنجبته، ولكنه كان صديقاً لأبني الوحيد، وقبل وفاته أوصى جدك بي خيراً، وكان جدك وفياً للوصية، فو الله ما احتجت شيئاً من يوم وفاة ابني إلا وأتى لي به، دون أن يكلَّ ولا يملَّ، وكان يوم الأحد من كل أسبوع يأتيني، حاملاً الفاكهة والطعام من لحوم وخضروات، تكفيني حتى الأسبوع القادم، ولكنّه منذ شهر لم يأتِني وأخشى أن يكون قد نسيني، صمتَتْ قليلاً وأكملت، أنا لست بحاجة لشيء، فما زالت الأشياء التي أحضرها موجودة وتكفيني شهوراً قادمة، ولكني أريد أن أطمئن عليه.

وقفت مكاني مذهولاً مما سمعت لا أدري أي شعور انتابني، لا أعرف إن كان كلامها يدفعني للحزن أكثر فأكثر عليه، أم يواسيني لأنه كان رجلاً عظيماً؟ ووسط شرود ذهني استفقت على صوت المرأة تسألني عن حاله.

فاقتربت منها وقلت لها: اعذريه وسامحيه إن لم يستطع تنفيذ وصية ابنك الشهر الماضي، فقد كان مريضاً وطريح الفراش يا أمّي...

-فسألتني بلهفةٍ لم تعطِني حتى فرصة لإتمام كلامي قائلة: لِمَ لمْ تذهبوا به إلى المستشفى؟

-فقلت لها: لم نترك طريقاً للطب إلا وسلكناه، ولأن الطبيب هو الله، فقد فشلت كل الأدوية، واليوم انتهى أجله وفاضت روحه إلى ربه، وهذا العزاء هو عزائه.

صرخت المرأة صرخةً رأيت فيها حرقةً ووجعاً كأنها أمّه التي ولدته، وأخذت تضع من التراب فوق رأسها، وتردد اليوم فقط وبعد ثلاثين عاماً شعرتُ بموت ابني.

احتضنتُها بكلّ رفقٍ، وحاولت تهدئتها، لكن دون جدوى، شعرت وكأنها دخلت في حالةٍ هستيرية.

وبدأت تطالبني أن تذهب معي، ولكن أين تذهب عجوز مقعدة مثلها في هذا الوقت المتأخر من الليل، وفي هذا البرد القارس.

خرج أهل العامل وبعض من جيرانهم على الصوت، ولكنه شرح لهم ما حدث.

طلبت منهم راجياً الاعتناء بالمرأة وعدم تركها وحيدة هذه الليلة، ووعدوني بذلك. تركتها واستقليت السيارة أنا والعامل للعودة مرة أخرى إلى القرية، لم أعلم كم من الوقت استغرق الطريق في العودة، ولا حتى كيف كنت أقود، فقط كل ما يدور في رأسي هو معنى الصداقة الحقيقية التي أراها، ما بين صديق يحمل كفناً وعطراً ويأتي من بعيد ليكون آخر من يخرج من قبر صديقه لأنهم تواعدا على ذلك، وما بين صديق يرعى أم صديقه بعد موته لسنواتٍ طوال تنفيذاً لوصية شخصٍ مات، رغم أن الثلاثة لا تربطهم أي قرابة أو صلة دم.

والسؤال الذي يطفو على ذهني، هل أمتلك أصدقاءً مثل هؤلاء؟

وصلنا إلى القرية، توقعت أن يخف عدد الحاضرين، ولكن يبدو أنه قد زاد، القرية مليئة بالبشر، الحركة غير عادية، الإضاءة في كلّ مكان، البيوت كلها مضيئة بفعل التيار الكهربائي ومفتوحة لاستقبال الحاضرين، حتى الأراضي التي لم تضِئ يوماً مضاءة الآن بفعل المولدات التي وضعت فيها، وتم توصيل لمبات منها، القرية وكأنها في منتصف النهار.

نزلت من السيارة التي وضعتها مكانها حيث ما انطلقنا بجوار العجوز، أخذ العامل لوازمه.

نظرت للعجوز فإذا هو مكانه لم يتحرك، ويستند على عصاه، لا يعيره أحد اهتماماً، ولا يعير اهتماماً لأحد، لا يرفع رأسه، لا أدري ما الذي يجبره على مثل هذه الجلسة، في هذا البرد القارس، وماذا يفعل؟ وماذا يقول وهو هكذا؟ حتى أنّ أحداً منهم لا يهتم بوجوده.

كم أتمنى أن أذهب إليه وأطرده من هنا، فوجوده في المقابر ليلاً، وعزلته، والكتب والأوراق التي عنده، وحديثه مع شخص لم أجده حينها، كلها أمور تؤكد أن وراء هذا الرجل شيء كبير خفي.

ولكني إذا اقتربت منه وطردته من هنا ربما لن يكون خياراً صائباً لو رآني أحدٌ من الغرباء عن القرية، لذا آثرت الصمت، ولكن في قرارة

نفسي أردد: لنا عودة أيها العجوز.

تركته ودخلت إلى داخل العزاء، لأقف بين الصفوف أستقبل من جاء من خارج القرية، ولا زالت الأعداد كبيرة رغم تأخر الوقت.

مرَّ الوقت وبعد منتصف الليل بدأ الوضع يهدأ، فقد رحل من رحل من غرباء القرى المجاورة، وبقي في البيوت من هم من أماكن بعيدة، ويصعب رحيلهم الآن، خاصة من له معارف وأقارب في قريتنا هؤلاء سيبيتون الليلة.

أطفأت الكثير من الأنوار خاصة التي كانت تعمل بالمولدات، وبدأ العمال الذين يشرفون على سرادق العزاء إعادة تهيئته من جديد وإعادة الكراسي إلى أماكنها فلا زال هناك يوم آخر غداً. جميع أهل القرية متعبون، كان يوماً صعباً على الجميع، بدأوا بالذهاب إلى بيوتهم، وعاد الهدوء قليلاً إلى القرية.

وبفعل البرد القارس أصبحت الطرقات خالية، فالجميع في المنازل حتى لو كانوا ما زالوا مستيقظين.

كانت سجائري قد نفدت مني، فتذكرت أني تركت واحدة من علب سجائري في السيارة، عندما كنت مع العامل، ذهبت لإحضارها، فتذكرت مكان العجوز، نظرت إليه، فلم أجده فيه، يبدو أنه قد رحل ولكن إلى أين؟

نظرت حولي على امتداد الأنوار، فلم أرَ له أثراً. فقلت في نفسي لابد أنه قد ذهب إلى بيته، ليقي نفسه هذا البرد.

أخذت سجائري، وضعت أحد الكراسي لأجلس عليه، فمازال العمال لم ينتهوا من أعمالهم، ولابد أن أقف معهم، طلبت من العامل الذي جاء خصيصاً لإعداد المشروبات للمعزين، أن يقوم بإعداد فنجان قهوة لي، وسرعان ما أعطاني إياه.

أشعلت سيجارتي، واحتسيت فنجان القهوة، وبينما أنا هكذا، إذا بصورة العجوز تسيطر على عقلي وكأنها طفت على سطح أفكاري، بدأ عقلي يتقلب ودار في ذهني هذا الرجل رأيته في المقابر أول مرة في هذا التوقيت تقريباً، وأخشى أن يذهب إلى المقابر الليلة، نعم أنا لا أعرف حتى الآن ماذا يفعل تحديداً في المقابر؟

ولكن الأوراق التي يملكها من كتاب العزيف، والتي تنبأ بتقصي الماضي، وإنطاق جثث الموتى، واستحضار الأرواح، جعلني أقرر أن أذهب وراءه.

فالمقابر هذه الليلة يسكنها جدي، وهي أول ليلة له فيها، وأخشى أن يفعل هذا العجوز بجثته شيئاً.

هذا ما دار داخلي فقررت اقتفاء أثره، وأن أمنعه من تحضير شيء هذه الليلة مهما كلفني الأمر.

وسرعان ما نهضت من مكاني، كان العمال على وشك الانتهاء، فأخبرتهم أني سأعود قريباً.

انطلقت مسرعاً باتجاه بيت العجوز.

هو في أحد أطراف القرية من الداخل، بعد أن تنتهي من القرية، ستسلك طريقاً وسط الأراضي الزراعية، هو طريقٌ ضيقٌ جداً، أُعِدَ فقط ليمرَّ منه أهل القرية إلى أرضهم، فهو مختصرٌ لهم عن الطريق العام في القرية.

هو طريقٌ مظلمٌ لا يصله أي إضاءة، الأشجار والزرع على جانبيه، أيضاً هو طريقٌ غير مستوٍ، وإنما عبارة عن تعرجات.

وصلت عند بداية الطريق، الهواء هنا لا يداعب الأشجار فقط، إنما وكأنه يتصارع معها، نظرت إلى الطريق أمامي خالٍ تماماً، فأسرعت وقبل بيت العجوز بمسافةٍ ليست كبيرة، لمحت العجوز على ضوء القمر يسير ببطءٍ، ويتكئ على عصاه كعادته، فأبطأت سيري كيلا يشعر بي، ولكني تعجبت!! حركته بطيئة، وهذه ليست حركته التي رأيتها منه أول مرة في المقابر، فهو رغم كبر سنه إلا أنه سريع الحركة!! ترى ماذا به اليوم؟

تذكرت أيضا أني حين جذبته اليوم بعنفٍ في المقابر كان هشاً، كاد أن يسقط أرضاً.

حقاً العجوز اليوم أشعر وكأنه شخص آخر!!

استمر هكذا يتحرك ببطءٍ وأنا خلفه، وقبل بيته بقليل جلس مكانه فجأة، فوقفت متسمّراً مكاني، فأنا لا أريده أن يراني، ولكن لماذا جلس هكذا فجأة؟

هل شعر بوجودي وأني أتتبعه؟ دار شكي أنه ربما يقضي حاجته، أو يستريح، حقاً لا أعلم ولكن جلسته غير طبيعية بالمرة، حركته في جلسته زائدة، وأنا لا أستطيع التركيز أكثر خشية أن يراني، حاولت الاختباء خلف الأشجار على جانبيّ الطريق أراقبه.

مرّت دقائق وهو على حاله هذه، الخوف بدأ يتملكني خاصة مع حركته في جلسته التي لا تهدأ، وهذا ما كان يدفعني للاختباء أكثر، والنظر إليه من حينٍ إلى آخر.

وفي إحدى مرات اختبائي خلف الشجرة، عدتُ لأنظرَ إلى العجوز فلم أجده مكانه!!!

وكأنه اختفى، نظرت إلى الطريق حولي لا أثر له، ذهبت مسرعاً إلى المكان الذي جلس فيه، لم أجد سوى آثار ثوبه وحركته على التراب، نظرت إلى بيته لا زال مظلماً تماماً، حتى النور الخافت الذي يخرج منه كل ليلة غير موجود، يا الله... أين ذهب هذا العجوز؟!!!

وبينما أنا في ذهولي ودهشتي هكذا، إذا بصوتٍ خافتٍ يناديني باسمي!!

لم أخف فقط، بل شعرت أن قدماي أصبحتا لا تقويا على حمل جسدي، ووسط هولي وخوفي، عاد الصوت وبدأ يتكرر، كنت أريد أن أسأل من؟

ولكن الكلمات تلعثمت في شفتيّ، لم أقدر على النطق، أحاول جاهداً معرفة مصدر الصوت، لكن يبدو أن الهواء لا يداعب فقط الأشجار، بل يداعب الصوت أيضاً، فأشعر مرة أنه من خلفي، ومرة من أمامي، ومرة على يميني، ومرة على يساري!!!

لم أستطع أن أحدد مصدره، وقفت مكاني متسمّراً، لأجد شخصاً يخرج من خلف شجرةٍ، ويقول لي بصوتٍ خافتٍ: هيّا بنا من هنا.

نظرت جيداً فإذا هو أخي، التقطتُ بعضاً من أنفاسي،

-وسألته بحدة: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

-فقال لي: اخفض صوتك وسأخبرك، لقد رأيتك تسير مسرعاً، فجئتُ خلفك، لأعلمَ ما بك، حاولت اللحاق بك في القرية ولكنك كنت تسير بسرعة؛ وخشيت أن أرفع صوتي وأناديك، بصوتٍ عالٍ فيستيقظ أحد، وعندما وصلت إلى هذا الطريق وأنا ألحق بك، كنت قد اقتربت منك ولكنك لم تشعر بي، حاولت الحديث معك ولكني لمحت هذا الرجل أمامك، وأنت تعرف أني أخاف منه، فلم أتكلم حتى لا يسمعنا، وعندما جلس على الأرض ورأيتك تختبئ، اختبأت مثلك، تملّكني الخوف، وقررت العودة إلى

القرية، ولكني لم أستطع أن أتركك وحيداً مع هذا الرجل وفي هذا المكان، فتابعته حتى نهض من مكانه ودخل بيته وناديتك.

-سألته قائلاً: أمتأكدٌ أنت أنه دخل بيته؟

-فقال لي: نعم متأكد، انظر هناك ها هو النور الخافت الذي يخرج من بيته كل ليلة قد اشتعل.

فاحتضنت أخي الذي أعرف كم هو خائفٌ، فهو يشبه صديقي المتدين في خوفه، ولكنه لم يتركني وحيداً رغم خوفه حبّاً فيّ، فحمدت الله على نعمة الأخ، ودعوت الله سراً أن يحفظه لي.

أطبقت يدي على يده وعدنا إلى القرية، دخلنا القرية، ووصلنا إلى بيت جدي الذي مازال مفتوحاً، وأنواره مشتعلة، جدتي وعماتي وخالاتي يجلسن، ولا أعتقد أن إحداهن قادرة على إخراج صوتها، فقد ذهب مع الصراخ والنحيب.

نظرت إلى جدتي، حالتها مزرية، فصراخها طوال اليوم وحزنها وكبر سنها قد أرهقوا جسدها وبشدة.

فاقتربت منها واحتضنتها، فهي تحبني كثيراً، ودائماً ما كنت مدللها كما هو حالي مع جدي.

كانت تقول كلمات رغم كبر سنها، وكأنّها تتفنن في إيذاء قلبي بحروفها، حالها كحال من بجوارها من النساء، لا يمكنني التحمل فأنا مرهقٌ بما يكفي، الآن علمت أن المرأة ليست ضعيفة كما نعتقد، لكنها تملك لساناً ببعض كلمات منه تجعلك تشعر وكأنك امتلكت الدنيا وما فيها، وببعض كلمات أيضاً تجعلك تتمنى الموت، نحن الرجال مساكين قد تحترق قلوبنا ولكننا لا نستطيع إخراج جملة مرتبة هكذا مثلهم، قد يرى البعض أنها عادات وقوة، ولكني متيقن أنها ميزة في النساء وعجز فينا نحن الرجال.

وأمام طوفان كلامها الذي لا يهدأ، قررت الانصراف فأنا مرهقٌ حد الموت، وليس لدي أيّ طاقة لأحتمل كلمة واحدة أخرى.

فنهضت من مكاني واتجهت إلى بيتي، وصلت غرفتي واستلقيت على سريري، قلة النوم، والحزن، والإرهاق طوال اليوم يتملكني الآن، لست قادراً حتى على تغيير ملابسي، عيناي أصبحتُ أشعر أني غير قادر على رؤية شيءٍ بهما، ولا إرادياً أجد جفني ينطبق يغلقها، لم يمرّ وقتٌ طويلٌ وذهبت في سُبات نومٍ عميق.

استيقظت في اليوم التالي، كان العصر قد اقترب، لا أدري كيف مرّ كلّ هذا الوقت وأنا نائمٌ، بدّلتُ ملابسي وانطلقتُ إلى حيث العزاء، كنت أعتقد أن

الليلة ستكون أقل من الليلة الماضية في عدد الحضور، لكن يبدو أني كنت مخطئاً، فقد امتلأت دار العزاء لآخرها.

لم يقتصر الحضور اليوم فقط على من حضر من القرى المجاورة، بل امتدَّ الأمر ليشمل رجالاً من محافظات أخرى.

كنت أتعجب؟! كيف لجدي أن يعرف كل هؤلاء الناس وكم من الوقت أحتاج ليعرفهم؟ أنا حقاً لا أعرف ثلث من حضر.

صحيح أنه كان يغيب كثيراً عنا، في أمور مصالحات ومجالس كانت تستمر لما يتخطى الأسبوع، ولكني لم أتخيل يوماً أن تكون نتيجة تلك الأيام، هي هذه الجموع، فتذكرت قول رسول الله (ص): "كان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه".

مرّت هذه الليلة ولم تختلف كثيراً عن الليلة التي سبقتها، وبعد الانتهاء من مراسم العزاء، قام العمال بجمع أمتعتهم ليرحلوا عن القرية، وهذا الأمر استغرق طويلاً كان الفجر قد اقترب، وبعد أن انتهوا ورحلوا.

ذهبت إلى بيتي، دخلت غرفتي، واستلقيت على سريري محاولاً الظفر ببعض النوم، فغداً هو الجمعة وأريد بعد الصلاة زيارة جدي في المقابر، وبعدها السفر إلى القاهرة، الامتحان القادم لم يتبقَّ عليه سوى يوم واحد فقط.

وبالفعل جلست أتقلب في سريري حتى غلبني نومي، استيقظت قبل صلاة الجمعة، ولكني لم أتعجل الذهاب إلى المسجد كما هي عادتي في هذا اليوم.

وعندما وصلت المسجد انزويتُ في أحد أركان المسجد حقاً لا أريد أن أرى أحد.

فحتى لو قلّبت نظري ألف مرة في وجوه الحاضرين لن أجد أحبّ الوجوه إلى قلبي.

انتهت الصلاة، وخرجت متوجهاً إلى المقابر مباشرة، وعندما وصلت كان الجوُّ هادئاً هناك لا يوجد أحد، فقلت لنفسي هي فرصتي لأجلس مع أحبِّ الناس إلى قلبي وحدنا.

وصلت إلى القبر وجلست بجواره آهٍ من الوجع....

سامحني يا جدي فهذه أول مرة أكون معك ولا أقبل يدك ولكنك أيضاً لا تتحدث معي، أعرف أنك غاضبٌ مني لأني تركتك وحيداً يوم دفنك، ولكن هم مَنْ أجبروني فقد كنت مضطراً لاستقبال أصدقائك ومعارفك معهم لكن لا تقلق فقد أكرمنا ضيافتهم كما كنت تفعل، ولكنهم كُثر كيف تعرفت عليهم؟!....

والمرأة الكبيرة العجوز أخبرتها بوفاتك....

نعم غضبت كثيراً وحزنت عليك....

سامحني ولا تغضب مني أعرف أنّها امرأةٌ كبيرةٌ وأنت لا تريد حزنها ولكني كنت مضطراً أن أخبرها كيلا تظن أنك نسيتها....

لكني أعدك أنّني سأزورها ما بين الحين والآخر لأجلك....

هكذا دارَ حديثٌ بيني وبين نفسي لا أعلم متى بدأ ولا كيف انتهى.

كل ما أعرفه جيداً أني لأول مرة أكن مع جدي ولا يحادثني ولا ينصحني كما كان يفعل....

أيعقل أن تكون الآن عاجزاً هكذا يا جدي لا تقوى حتى على الحديث؟!!

أأنت من كانت تصمت المجالس عندما يبدأ حديثك؟!

لا أذكر أن أحداً أجبرك على السكوت والضعف!!

شرد عقلي وعاد للوراء سنوات، فتذكرت يوماً كنا نجلس فيه تحت تلك الشجرة المحببة لنا وقت غروب الشمس وجاء أخوه منفعلاً غاضباً، فأطال جدي النظر في عينيه طويلاً دون كلام، وكأنّه يقرأ في عينيه سبب غضبه، وأنا كنت ما زلتُ شاباً يافعاً ابن السادسة عشر من عمري، حاولت حينها فهم شيءٍ ولكني لم أستطع إلا بعد أن تحدث جدي وسأله قائلا: من منهم الذي رفض؟

فرد عليه أخوه قائلاً: فلان وفلان وأن المجلس سيعقد بعد صلاة العشاء من جديد.

فأمره جدي أن يعود إلى بيته ويتناول الطعام وينسى أمر ما حدث وأنه سيتولى الأمر بنفسه.

رحل أخوه وجلس جدي صامتاً فسألته قائلاً: ماذا جرى يا جدي؟

فلم يُجِبني في الأولى ولكنه في الثانية سألني قائلاً: ماذا تفعل يا بني إن وجدت مظلوماً أمامك وظالمه يتعنت في ظلمه؟

-فقلت له: سأساعده قدر المستطاع.

-فسألني قائلاً: وماذا إن استغاث بك هذا المظلوم؟

فصمت قليلاً ولم أجد إلا نفس الرد سأساعده قدر المستطاع.

-فقال لي: لا يا ولدي إن استغاث بك لا تكتفي بالمساعدة قدر المستطاع ولكن مُتْ لأجله إذا تطلّبَ الأمر، فو الله ما استغاث بك إلا وهو في أمسِّ الحاجة إليك.

وعاد مجدداً لصمته، ويبدو أنّ الأمرَ خطيرٌ فأنا لم أعهده هكذا في حياتي.

مرَّ الوقتُ، غابت الشمس، بدأ الظلام يلوح في الأفق، وهو لا يزال جالساً صامتاً.

وأنا أنظرُ إليه في صمتٍ. وبعد فترة طلب مني الذهاب إلى بيتي سريعاً وارتدى ملابساً تليق بلقاءٍ مهمٍ، وأنه سوف ينتظرني في بيته لأنه يريد أن أذهب معه.

تعجبت فحقاً لا أعلم ما السبب وما يدور في نفسه حول وجودي معه وما غايته من ذلك ؟!!

فيبدو أنّ هناك مجلس عرفي سيعقد والأمور فيه مشتعلة فما غايته من ذهابي معه حقاً لا أعلم!!

ولكني أسرعت كما طلب مني، وقبل أن يتهيأ هو كنت أنا بانتظاره في بيته.

ومن المعروف أن يتمَّ صلاة الوقت المحدد في حينه، في المكان الذي تم تحديده لانعقاد المجلس حتى يكون الجميع حاضراً، ولكنّه طلب مني أن أجلسَ حتى نصلي العشاء في مسجد قريتنا وبعدها نذهب إلى القرية التي سيعقد فيها المجلس.

تعجبت أكثر ولكني لم أسأله يبدو أنه يتعمد ذلك.

صلينا العشاء في قريتنا وذهبنا إلى القرية التي بجوارنا.

طوال الطريق كان صامتاً، يستغفر الله ويدعو كثيراً.

يبدو أنه متوترٌ لم أعهده كذلك من قبل، ولكن من وقتِ مجيءِ أخيه إلينا والأمور لا تسير بخير، لكني التزمتُ الصمتَ.

وعندما وصلنا إلى المجلس كان عدد الحضور كبيراً، فيه بعض من شيوخ الحكام والذي يعتبر جدي واحداً منهم، والكثير من الرجال، كان الصوتُ عالياً نسمعه من بعيد، مشاداتٌ كلاميةٌ بين الحاضرين.

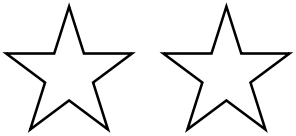

دخلنا إلى المجلس، ذهبَ جدي إلى منتصف المجلس وجلس دون أن يلقي السلام!!

وهذا المكان من الأساس ليس مخصصاً للحكام!!

بل هو مكانٌ للخصوم ومَنْ بينهم النزاعات، استغربتُ من فعلته هذه حالي كحال جميع الحاضرين حتى الحكام!!!!

وكان أول سؤال سألوه له: لماذا لم تُلقي السلام؟

فأجاب نصاً: لا سلام لمن لا يعرف التقدير والاحترام.

ضجَّ المجلس من كلماته بدأت الأصوات والأحاديث الجانبية تعلو....

ولكنّه نظر في وجوه جميع الحاضرين حوله فبدأ الهدوء يخيم على المجلس، ثم قرأ قول الله تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

خيّمَ الصمتُ على الجميع وقت تلاوته، واستطرد قائلاً: منذ أيام نسعى للصلح وإظهار الحق، ووفقنا الله في ذلك، ولكن عائلة فلان رفضت الحق وتجبرت وتغطرست على عائلة فلان، وهذا لا يرضاه الله.

فالحق الآن ظاهر وواضح وأنا أُمهلكم حتى غدٍ بعد صلاة العصر، إذا لم يعُد الحقُ لأهله سوف نعتبره لنا ونأتي لأخذه بأنفسنا. وهَمَّ بالرحيل قام دون أن يستأذن كما دخل دون أن يلقي السلام، شقَّ الصفوف خارجاً وسط ذهول الحاضرين، تبعه في الانصراف أفراد العائلة المظلومة، وبعضٌ من شيوخ الحكام الذين لا يرضون الظلم.

عدنا إلى القرية، وكان لازال صامتاً، وفي الطريق أثناء عودتنا،

-سألته قائلاً: إنّ عائلة فلان الظالمة قوية هذا ما أسمعه عنهم، أما تخاف من معاداتهم يا جدي؟

-فقال لي: بلى يا بني أخاف من معاداتهم، ولكن من القوة والشجاعة أن تبعث في خصمك من الخوف أكثر مما في نفسك وقت مواقف الحزم؛ فإنه يحرص على حياته كما تحرص على نفسك.

-فسألته قائلاً: وماذا لو لم يعُد الحق لأهله غداً كما حددت، هل ستدخل في حرب عائلية معهم؟

صمتَ قليلاً وتنهد ثم

-قال: أعلم أن هذا إن حدث ستكون هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، ولكننا سنخوضها يا بني تنفيذاً لأوامر الله ونصرة للمظلوم؛ فالحياة غير

ثابتة يا ولدي دائماً ما تدور، وإذا كنا اليوم أقوياء فالله وحده أعلم هل سيبقى الحال هكذا للأحفاد أم تدور الدائرة عليهم؟!! ولكن إن دارت الدائرة عليهم وأصبحوا مظلومين يوماً ما، سيجدون قوياً وقتها يقف بجوارهم كما نفعل نحن الآن، فهذه الدنيا تجازيك بقدر ما تفعل يا بني فقدم دائماً الخير ولا تنتظر رداً أو شكراً من أحدٍ.

وصلنا إلى بيته وأرسل في طلب إخوته وأبناء عمومته، لم يتأخروا كثيراً فسرعان ما حضر عدد كبير منهم وبدأوا في حديثٍ طويلٍ استمر لما يزيد عن ساعتين، انتهى بالموافقة على ما قاله جدي في المجلس العرفي هناك، وكنت على يقين من ذلك، فهو ما كان ليتخذ قراراً مثل ذلك لو أنّ لديه شكٌ واحدٌ أنهم سيخذلونه، وأعتقد أيضاً أنّه جمعهم لإخبارهم بما سيحدث، وليس لأخذ مشورتهم، ولكنّه أراد أن يخرج الأمر وكأنه شورى بينهم، رغم أنه كان دائماً ما يفعل ذلك.

انصرف الجميع إلى بيوتهم، وظلَّ ليلته هذه مستيقظاً وأنا بجواره، تارة يغلبني النعاس وتارة أستيقظ فأجده مازال مستيقظاً، كان التوتر يبدو عليه وهذا الحال لم أرَه عليه من قبل.

أشرقت الشمس وهو لم ينَم فالأمر حقاً خطير.

وفي الصباح كانت الأمور تجري بشكلٍ طبيعي في القرية، ولكن قبل الظهر ومع اشتداد حرارة الشمس فقد كنا في منتصف تموز حينها، بدأ أبناء العمومة وشباب العائلة ورجالها يجتمعون عند بيته كما حضر الكثير من أبناء القبيلة في القرى المجاورة كان قد أرسل في طلبهم، ويبدو أنَّ الأمر انتشر في القرية فبدأ كبار رجال العائلات الأخرى في الحضور، منهم من بدأ بعتاب جدي قائلاً: ألسنا أصحاب نخوة وكرامة في أعينكم لتخوضوا غِمارَ واقعةٍ مثل هذه بدوننا؟!!

وسرعان ما اجتمع كل عائلات القرية على رأي جدي، حقيقةً لم يتأخر أحد من القرية، وهذا ما يميزهم فرغم اختلاف نسبهم وأنّهم يعيشون النعرة القبلية ويقدسونها، إلّا أنهم رجل واحد عندما يتعلق الأمر بخارج القرية.

كان موقفاً يدعو للفخر، فما أجمل من أن تكون قرية كاملة متفقة على نصرة مظلوم. تأهّبَ الجميع وكانت شوارع القرية ممتلئة برجالها رغم شدة الحرارة بعد الظهر. وقبل العصر بدقائق معدودة بدأت وفودٌ من القرية المجاورة في المجيء إلى بيت جدي معهم بعض من شيوخ الحكام، يخبرون جدي أنَّ الأمرَ قد انتهى وأنَّ الحقَ سيعود لأصحابه بعد صلاة العصر مباشرةً، هكذا اتفق الطرفان.

وبالفعل عاد الحقُ لأهله دون أن يحدث مكروه لأحد، أعتقدُ أنَّ جدي كان صادقاً ومخلصاً لله حتى في دعواته لتسير الأمور هكذا بخير.

وعلمت حينها أنَّ الظالم ما تمادى في ظلمه إلا لأنه لم يجد من يقف بوجهه، وأننا لو نصرنا المظلوم ما كان ظالمٌ بيننا.

كنت أسمعُ دعوات النساء والرجال والأطفال من العائلة المظلومة له وأتذكرها كأنّها أمامي الآن، كم أتمنى أن تكون دعوة أحدهم استجابها الله حينها لتكون لك ذخراً الآن في قبرك ويجعله روضة من رياض الجنة.

وبينما أنا شارد الذهن هكذا أتجول بذاكرتي فيما كان يفعله إذا بيد أحدهم على رأسي، نظرتُ فإذا هي جدتي جاءت لزيارته، لم نتكلم ولكني عندما نظرت حولي ولم أجد في المقابر إلا أنا وهي، علمت بأننا أكثر من افتقدناه.

دعونا الله له كثيراً فهو الآن ضعيف يحتاج إلى دعوة، ذهبت قوته وجبروته وسطوته وحكمته، الآن لا حركة ولا صوت، أصبح طعاماً للدود وينام على التراب في غرفة ضيقة مظلمة ومغلقة. آاااااااهٍ من دنيا نتصارع عليها ونتناسى أنّنا يوماً ما، عاجلاً أم آجلاً سوف نفترش التراب، ويأكل أجسادنا الدود....

مرَّ وقتٌ ونحن هكذا لم يكن طويلاً وأخذت جدتي وعدنا إلى القرية حيث مقابر الأحياء...

أوصلتها بيتها وعدت إلى بيتي. لم أعلم حينها أيّ ضيق صدر هذا الذي انتابني!!

أشعرُ وكأنّي غريبٌ في بيتي فقررت السفر إلى القاهرة الليلة، ولن أنتظر حتى الصباح.

وهذا ما اعترضوا عليه، وخاصة أن السفر ليلاً من قريتنا وفي ليلة من ليالي الشتاء هو ضربٌ من الجنون.

ولكني كنت قد عزمت النية ولن أتراجع عن قراري، وبالفعل ذهبت لاستقلال سيارة من المركز ومنه إلى المحافظة ومنها إلى القاهرة، كان البردُ شديداً، وقلة الإقبال من المسافرين في هذا الليل تجعلنا ننتظر بالساعات كي يكتمل العدد، حقاً كانت ليلةً صعبةً للغاية ولكني أريد الخروج من القرية مهما كان الثمن.

فأنا غير معتادٍ عليها بدون جدي، وقلت في نفسي: أنّ الأمر سيكون أسهل هناك في القاهرة حيث الزحام، وما أدراك ما زحام القاهرة؟!!

وصلت إلى حيث أسكن أنا وأصدقائي بعد منتصف الليل، كانوا نيام، دخلت غرفتي وكان الإرهاق قد بلغ من جسدي مبلغه، وسرعان ما جاءني النوم دون عناء.

استيقظت في اليوم التالي لم أُعطِ نفسي فرصةً للتفكير، بل سعيت جاهداً لأشغال عقلي باستذكار الدروس، فالامتحان القادم على بُعد ساعاتٍ.

انتهى اليوم سريعاً وجاء يوم الامتحان وانتهى أيضاً.

هكذا استمر ما يقارب الشهر هي مدة فترة الامتحانات ما بين امتحان أستعدُ له وينتهي، فأستعدُ لغيره وينتهي. حتى انتهت فترة الامتحانات.

كان من الطبيعي أن أعود إلى القرية بعد انقضاء الشهر، ولكنّي لم أشعر أني أريد ذلك، لا أعلم ماذا حدث؟!! فقد كنت أشتاق للقرية إذا غبتُ عنها يومين والآن شهر انقضى ولا أريد العودة إليها.

فقررتُ أن أذهبَ إلى بيت عمي في القاهرة فهو متزوجٌ من خالتي ولا مشكلة أبداً أن أجلس معهم لفترة، خاصة أن أعمار أولاده قريبة من عمري وتجمعنا الصداقة قبل قرابة الدم. وعندهم سأستريح من ضغوطات الامتحان وأريح عقلي من تذكّرِ فقدان جدي.

ذهبت إلى هناك، استقبلني بحفاوةٍ، وكان منزله طابقين يجلس هو وزوجته في طابق، وكنت أجلس مع ابنه في الطابق الثاني. مرّت الأيام سريعاً فقد كان في نفس سني، كنا نضحك ونتسامر ونخرج هكذا كان يمرُّ يومنا. وبعد مرور قرابة الشهر اتصل بي أخي ليخبرني أنّ أمّي مريضةٌ وتطلب رؤيتي، لم أتردد وعلى الفور أعددت حقيبتي واستقلّيت السيارة عائداً إلى القرية.

وصلت هناك لا شيء جديد، الهدوء يخيم عليها، أصوات الأطفال يلعبون، وكلّ الرجال لا زالوا في أرضهم وعملهم، رغم أنَّ غروب الشمس قد اقترب، إلا أنَّ فصل الربيع في الأراضي الزراعية له طعمٌ آخر.

وصلت إلى بيتي سريعاً لأرى أمّي وأطمئنَ عليها، فقد كنت قلقاً، ولكنّها كانت بصحةٍ جيدةٍ. فنهرتُ أخي وسألته غاضباً: كيف تقول أنّها مريضة وهي بصحةٍ جيدةٍ؟! وقبل أن يتكلم ردت هي بسرعة قائلة: أنا مَن طلبتُ منه ذلك يا بني فقد اشتقت لك كثيراً، واحتضنتني بقوةٍ.

وكانت قد أعدت الطعام وانتظروني فلم تعطِني فرصة لأن أبدّلَ ملابسي، جلسنا جميعاً على مائدة الطعام وبعد أن انتهينا استأذنتُ أن أدخل غرفتي لأغيرَ ملابسي وآخذُ قسطاً من الراحة، لأستريح من تعب السفر. دخلت غرفتي بدّلتُ ملابسي واستلقيت على سريري، وحاولت النوم لكن لم

أستطِع، فقد شردَ عقلي مني وذهب بي بعيداً لم يترك شيئاً إلا ويفكر فيه رغماً عني، تارةً أفكر في الامتحانات وأصدقائي، وتارةً أفكر في جدي ومواقفه ويوم وفاته، وتارةً أفكر في العجوز وكيف رأيته في المقابر أول مرة، هنا توقف عقلي وبدأت تراودني الأسئلة من جديد حول العجوز وما يخفيه؟ وكيف سكن قريتنا؟ وما علاقته بالمقابر؟ وما سبب عزلته المفاجئة؟ وما أمر الكتب والأوراق والطلاسم التي في بيته؟!

هنا توقف عقلي وتذكرت أني ليلة سمعتُ العجوز يتحدث مع أحدٍ في بيته المرعب بعد منتصف الليل، دخلتُ ولم يكن هناك أحد، ولكني أخذت بعض الأوراق معي من عنده.

نعم أخذتها ووضعتها هنا تحت سريري، فمددت يدي لأجدها حيثما وضعتها فلم أجدها، نهضت مفزوعاً، رفعت غطاء السرير، فككته كاملاً نظرت حوله وتحته لم أجد الأوراق!! بدأتُ أتخبط كالمجنون أين ذهبت تلك الأوراق؟! ووسط هذا الهرج الذي فعلته بغرفتي دخلت أمّي مسرعة وسألتني: ماذا بك يا بني؟

-فقلت لها منفعلاً: هناك أوراق مهمة جداً أضعتها.

-فقالت: تقصد تلك الأوراق التي كانت تحت سريرك؟

-فقلت: نعم هل رأيتها؟

- فقالت لي: نعم يا بني ذات يوم دخلت لأرتب غرفتك وبينما أرتب سريرك وجدتها.

-سألتها: أين هي؟

-فقالت: هناك في أحد أدراج مكتبك.

- فقلت لها منفعلاً غاضباً: من الآن فصاعداً لا يدخل أحدكم غرفتي في غيابي حتى لو سكنتها العنكبوت.

-فقالت لي: حاضر يا بني ولكن هدئ من روعك، أنا لا أجيد الكتابة ولا القراءة، وعندما وجدتها قلت أنّك ربما نسيتها منذ فترة لأنها شبه بالية، واحتفظت لك بها في مكتبك. قمت مسرعاً إلى مكتبي لأطمئن عليها فوجدتها كما أخبرتني أمّي، فاعتذرت لها عن انفعالي وبررت ذلك بكم الضغط الذي يعانيه عقلي هذه الأيام.

-فقالت: لا عليك يا بني... ودعت الله لي أن يريح عقلي واحتضنتني برفق. علمت حينها أن الأمهات هم جنة الله لنا في الأرض، قبلت يدها ودعوت الله سراً أن يحفظها لي.

-قالت لي: سأخرج وأتركك تستريح وإذا احتجت شيئاً فقط نادني، وانصرفت وأغلقت الباب خلفها.

أمسكت بالأوراق وجلست على سريري، حاولت فتحها وتقصي ما فيها، ولكنْ نقاشٌ حادٌ دار بيني وبين نفسي ما بين الموافقة على فتحها وتقصي ما فيها وما بين عدم فتحها.

تارة الفضول يغلبني، وتارة يغلبني الخوف، فماذا لو أنَّ هذا الرجل ساحرٌ حقاً يحادث الموتى؟! وأن هذه الأوراق بها طلاسم قد تحضر بسببها روح أحد الموتى معي في غرفتي ولا أستطيع أن أصرفه!! فكرت في التخلص من الأوراق بحرقها، ولكني خشيت أن يعرف العجوز بأمرها ويطالبني بها، ولو أنّها مهمة عنده حتماً سيضرني بسببها.

المخاوف والفضول وعقلي المنهك سلفاً بموت جدي، كلها أشياء اجتمعت وأرهقت جسدي حتى غلبني نومي وأنا في حالتي هذه.

لم أعلم كم من الوقت مرَّ وأنا نائم؟!!

ولكني استيقظت على صوت هاتفٍ بداخلي يخبرني بأنه لابد أن أعيدها إلى العجوز.

حقاً لا أدري أكان هاتف حلمٍ في منام؟ أم هاتف قلبٍ خائفٍ؟ أم هاتف عقلٍ باطني استطاع وقت نومي فضَّ النزاع بين الفضول والخوف. لكن في نهاية المطاف اقتنعت بكلام الهاتف وقلت في نفسي: فليكن العجوز ما يكن، مادام لم يضرني ولا يوجد بيني وبينه ما يستدعيني لمعاداته والبحث وراءه فلما أعاديه؟!

إن كان ساحراً حقاً فالله سيجازيه بكفره، أما أنا فسأفعل معه ما يفعل جميع أهل القرية، أعتزله وكفى الله المؤمنين شر القتال.

ولكن السؤال الذي يدور بعقلي الآن، كيف سأعيد إليه أوراقه؟!!

أنا قطعاً لن أذهب إلى بيته المرعب مرةً ثانية.

فالله حفظني في تلك الليلة ربما بدعوة صادقة من أبي حينها.

إذاً فكيف أعطيه إياها!! وبعد تفكير طويل قررت أن أعطيه إياها في أرضه، فهو دائماً ما يخدم أرضه بنفسه ودائمَ التواجد هناك.

بالفعل استيقظتُ في اليوم التالي حملت الأوراق معي وانطلقت إلى أرض جدي التي لا تبعد كثيراً عن أرض العجوز، وهناك أهل القرية جميعهم في أرضهم ولن يصيبني من العجوز مكروه أمامهم.

وصلت إلى أرض جدي وجلست تحت تلك الشجرة حيث ما كنا نجلس أنا وجدي، نظرت إلى أرض العجوز ولكنّه غير ظاهر، فأشعلت النار كما كنا نفعل أنا وجدي وجلست أنتظره.

مرَّ وقتٌ طويلٌ ولم يأتِ العجوز ولم يظهر كعادته في أرضه، أنا بطبعي أكره الانتظار، ولكن ما جعل الأمر هيناً أني كنت بين الحين والآخر، أتذكر جدي وكلامه معي هنا ومواقفه. بدأت الشمس في الغروب، حلَّ الظلامُ ولم يأتِ العجوز، فقلتُ لنفسي: لا مشكلة غداً سيأتي.

عدتُ إلى بيتي، مرَّت ليلتي عادية، وفي اليوم التالي استيقظت ولا يشغل تفكيري إلا إعادة الأوراق للعجوز.

ذهبتُ إلى الأرض وانتظرته وظللت أراقب أرضه طوال اليوم ولكنه لم يأتِ.

مرَّ يوم واثنان والثالث والعجوز لم يظهر في أرضه!

بدأ عقلي يتشتت أين العجوز؟ وأين يختفي هذه الأيام؟ ولماذا يهمل أرضه هذه ليست عادته؟!!

قررتُ مراقبة بيته حتى إذا ما خرج لقضاء أمر ما أعطيته إياها وانصرفت مسرعاً.

ذهبتُ في اليوم الرابع لأراقب بيته عن بعد، كان الباب مغلقاً طوال اليوم ولم يخرج العجوز، حلَّ الظلام واضطررت للعودة إلى بيتي ومعي الأوراق التي لا أعرف كيف أتخلص منها، يبدو أنها لعنة أصابتني!!!

دخلت غرفتي واستلقيت على سريري كعادتي والأوراق في يدي، وكانت هذه الليلة بردها قارس، رغم أننا في فصل الربيع إلا أنك تشعر أنها واحدة من ليالي الشتاء.

ومع منتصف الليل وبعد أن حلَّ الظلام وعاد الهدوء يخيّم على القرية، طرقاتها خالية تماماً لا يوجد أحد، ولأنني أحب الخروج في هذا الهدوء حملت الأوراق معي وخرجت لا أعلم أين قبلتي!!!

وبعد فترة من السير وجدت نفسي على مقربة من بيت العجوز فوقفت أنظر إلى البيت، ولكن الأمر غير طبيعي هذه الليلة، فبيت العجوز عهدته مظلماً إلا من شعاع نورٍ خافتٍ يخرج منه، أما هذه الليلة فهو مظلمٌ تماماً، حتى شعاع النور غير موجود!!

بدأت الشكوك تدور بداخلي حول اختفاء العجوز؟!!

وبدأ الفضول يدفعني للذهاب إلى بيت العجوز لأوقف نزيف الشكوك وأقطع الشك باليقين، وأعرف ماذا يدور؟ ولكن المخاوف تسيطر عليّ وقد كنت

مستسلماً لها كلياً وقلت في نفسي، إنَّ غداً هو يوم الجمعة ورغم أن العجوز لا يشارك أهل القرية شيئاً، إلا أنّه ما انقطع يوماً عن صلاة الجمعة، صحيح أنّه يأتي متأخراً يصلي في الصف الأخير ويذهب مسرعاً لكنه يأتي، لذا سأنتظر الصباح، هكذا قررت.

عدت إلى بيتي ومعي الأوراق، بتُ ليلتي، استيقظت مبكراً، وتهيأت للصلاة، ولكني تعمدت التأخير، وقبل أن ينتهي الخطيب من خطبته حملت الأوراق معي وذهبت إلى المسجد، نظرت في الصفوف الخلفية والمكان الذي يجلس فيه العجوز فلم أجده.

انتهت الخطبة ولم يأتِ، بدأت الصلاة وأيضاً لم يصل إلى المسجد!!

انتهت الصلاة وأسرعت بالخروج من المسجد نظرت في كل الوجوه ولم أجده!!

أطبقت يدي على الأوراق بقوة ونظرت إليها ولا أعلم ماذا أقول! !!

كل ما يدور في عقلي الآن هو سؤالٌ واحدٌ، متى سأتخلص من تلك الأوراق؟!

عدتُ إلى بيتي وأثناء عودتي نظرت من بعيد إلى بيتِ العجوز لعلّه صلى في مكانٍ آخر وسيعود، ولكنّي أيضاً لم أرَه، وباب بيته لا زال مغلقاً.

وصلت إلى بيتي، وفي إحدى زوايا البيت من الداخل جلست للظفر ببعضٍ من دفءِ الشمس فهي ليست حارة. وبينما أنا جالس أفكر في أمر الأوراق وكيف سأعيدها؟ وفي أمر العجوز أين يختفي؟

إذا بأخي يأتي ليجلس بجواري ويسألني قائلاً:

-ما هذه الأوراق التي تحملها هذه الأيام تخرج بها وتعود بها؟

-فقلت له: لا شيء هي فقط أوراق تخص دراستي.

فأومأ لي برأسه وكأنه يتفق معي على صحة كلامي، ولكني على يقين أنه غير مصدق، فرغم أنه شديد الخوف إلا أنه يمتاز بالذكاء.

-فسألته قائلاً: متى آخر مرة رأيت العجوز فيها؟

-فقال لي: أي عجوز تقصد؟

- فقلت: فلان... ذلك الرجل العجوز الذي يسكن أطراف القرية وتخاف منه.

- فقال: آه... تقصد ذلك الرجل الساحر، لقد أراح الله القرية والبشرية منه.

- فقلت متعجباً: ساحر!!! وأراح الله القرية منه!!! هل مات؟

- فقال: لا، أما سمعت بما حدث معه؟

- فقلت له: لا لم أسمع، أخبرني ماذا حدث معه؟ وكيف عرفتم أنّه ساحر؟

- فقال: منذ ما يقارب الشهر استيقظنا على الشرطة تحاوط القرية من كل المداخل، كانت أعداد أفراد الأمن كثيرة، وهذه ليست عادات الشرطة أن تدخل قريتنا، فذهبنا لنعلم ماذا حدث، فقالوا أنّ العجوز ذبح طفلاً من القرية التي بجوارنا.

- فاستغربت وسألته قائلاً: لماذا قتله، وكيف عرفتم أنّه هو من قتله؟

- فقال: لا نعلم السبب حتى الآن، ولكن الشرطة وجدت جثة الطفل بجوار بيت العجوز، وعندما قاموا بتفتيش بيته عرفوا أنّه ساحر وقتل الطفل ليقدمه قرباناً للشياطين، وقاموا بمصادرة كل الأشياء التي تخصه، وقاموا بإغلاق بيته، وهو الآن يُحاكم.

- فسألته متعجباً: ولماذا قتل طفلاً من قرية أخرى ولم يقتل طفلاً من قريتنا؟!! وهل من الطبيعي أن يذبحه ويضع الجثة بجوار بيته؟ أيُّ شيطانٍ عقيمَ التفكير هذا الذي يخدمه العجوز؟!!

- فقال: لا أعلم هذا ما حدث وهذا ما قالوه، ولكن إن أردت أن تعرف المزيد فغداً ستكون جلسة النطق بالحكم على حسب ما سمعت، اذهبْ وستعرف بنفسك.

- فقلت له: قطعاً سأذهب ولكن أخبرني، هل بحث أحدٌ من أفراد قريتنا في الأمر أو تابعه؟

- فقال: لا، إلا ذلك المحامي أراد الدفاع عن العجوز تطوعاً، وقيل إنّ العجوز رفض مرافعته وآثر الصمت في كلّ الجلسات.

- فقلت في نفسي: أيّ رجل مبهم هذا الرجل، حتى وهو قاتلٌ يرفض الدفاع عنه!!!

كانت كلمات أخي كالصاعقة فوق رأسي.

دخلت غرفتي واستلقيت على سريري بعد أن وضعت أوراقه في إحدى حقائبي وأغلقتها جيداً.

وكلّ ما يدور في رأسي ماذا لو أن العجوز رآني في تلك الليلة وأنا في بيته، ربما كنت أحد قرابين شيطانه اللعين.

بتُ ليلتي أتقلب في سريري وفي الصباح استيقظت مبكراً، ذهبت إلى قاعة المحكمة حيث المكان الذي ستعقد فيه الجلسة. كانت القاعة شبه خالية إلا من عدد قليل من أهل الطفل ودفاعهم الذي يطالب بالإعدام، ولا يوجد أحد من أفراد قريتنا، والعجوز داخل القفص الحديدي لا يتكلم، جلست في آخر الصفوف لأشاهد المشهد كاملاً نظرت إلى العجوز وإلى والد الطفل الذي

التقطت كاميرة عيني مشهداً بينهم يعجز كل أطباء وعلماء النفس عن فهمه وتحليله، والد الطفل ما بين الحين والآخر ينظر إلى العجوز ولكن نظره على استحياءٍ، أما العجوز فينظر في عينيه كثيراً دون أن ترمش جفناه، مما يدفع والد الطفل لإبعاد نظره عن العجوز، استغربت وقلت في نفسي: من الطبيعي أن يحدث العكس!!!

ولكني قلت: لعلّها نظرة العجوز الحادة الثاقبة، هي التي تجعل والد الطفل يبعد نظره، ولكن أيّ وقاحة وحماقة وغلّ وحقد هذه التي يمتلكها العجوز؟!!! فلو أنّ أحداً مكانه لنكّسَ رأسه أرضاً.

وأيضا والد الطفل أيّ رعونة وضعف هذا الذي يمتلكه؟!!!

فلو أني مكانه لما أطلت النظر فقط، بل إنّني كنت سأسعى لاختراق القفص الحديدي لقتل العجوز.

المشهد غريب أحاول فهمه من أحد الطرفين ولكن لا أستطيع.

كل ما أعرفه جيداً، أنَّ هناك حديث يدور بينهم الآن في صمت، ولكن ماذا تقول أعينهم؟ وما مدى معرفتهم؟ ولماذا اختار العجوز ابن هذا الرجل لقتله؟ بدأت الأسئلة تدور في ذهني الشارد ولكن دون جدوى.

وفي إحدى نظراتي للعجوز وقعت عيني في عينه، يبدو أنه انتبه الآن لوجودي، نظرت إليه ولكن نظرته لي كانت تختلف عن نظرته لوالد الطفل. نظرته لي كانت مبهمة، ولكنّها أخفُ حدة من نظرته لوالد الطفل.

دار في عقلي أن أخبره بأمر الأوراق، فهو الآن داخل قفصٍ حديديّ وفي قبضة رجال الأمن، ولا يستطيع إيذائي.

وبينما أنا أفكر في ذلك إذا بصوت القاضي يعلن عن الحكم، وهو 25 عاماً، هذا الحكم أغضب أهل الطفل ودفاعهم رأيت ذلك في انفعالاتهم، ورد فعلهم الذي كان واضحاً عليهم جميعاً إلّا والده، الذي ظلّ صامتاً جالساً مكانه، أما العجوز رأيته في ثَباتٍ لم أعهده هكذا صلباً من قبل!!

كان ينظر إلى والد الطفل بحدة ولكنه لم يرفع عينيه، وقام رجال الأمن بأخذ العجوز من القفص الحديديّ وأثناء خروجه نظر لي نظرة فيها ابتسامة، لم أفهم معناها، وكان هذا ما استغربته، كيف لهذا العجوز أن يتحكم في مشاعره هكذا؟! ينظر إلى الرجل بحدة وبعد ثوانٍ ينظر لي بلطف!!

ولكن هل هذا لطفٌ أم هو هدوءٌ يسبق العاصفة وأنه عرف بأمر الأوراق ويضمر لي شراً؟!!

حاولت طرد مخاوفي فهو الآن بين القضبان ولن يخرج من هنا إلا ميتاً، انتهى أمره وإلى الأبد فلا داعي للخوف، هكذا قلت لنفسي. خرجت من القاعة متوجهاً إلى بيتي، حاولت العودة إلى حياتي الطبيعية وتناسي أمر العجوز، وأحاول التأقلم مع موت جدي، ومع هدوء القرية التي لا تروق لي رغم حبّي لها، فبلدي وإن جارت عليَّ عزيزة.

مرّت الأيام ولكنّها لم تختلف عن بعضها كثيراً، فبعض الحركة في النهار، وهدوء يخيم على القرية ليلاً، وأنا أسير فيها وهم نيام، وبعد مرور أربعة أشهر كاملة، جاءت الإجازة الصيفية والتي سأكون مضطراً بسببها لأن أقبع في القرية ما يقارب الثلاثة أشهر، يا الله.... كيف ستمر هذه الأشهر بدون جدي!!

الأمور والأيام كانت تسير بشكلٍ جيدٍ في هذه الأيام، وفي أحد الأيام وبينما أنا عائدٌ من القرية التي بجوارنا، وكان وقت الظهيرة وحرارة الشمس جعلت طرقات القرية خالية وهادئة كما هو حالها ليلاً، وكنت على مقربةٍ من بيت العجوز، اقتربتُ من البيت نظرت إليه طويلاً وأمعنت النظر، كنت أقول في نفسي: تُرى كم شخصاً قتله العجوز قبل الطفل؟ وكم بيت تأذى بسببه؟

وبينما أنا شاردُ الذهن هكذا، أفكر في أمر العجوز وأول مرة قابلته في المقابر، إذا بي ألمح أحد نوافذ البيت مفتوحة.

حدثتني نفسي أنّ أحداً دخل إلى بيت العجوز، ولكن من منهم يجرؤ على فعلتها؟!!

ربما فتحة الهواء يوماً ما، دارت الأسئلة في عقلي، ولكن الفضول تملّكني هذه المرة لأذهب إلى النافذة المفتوحة وأنظرُ منها، ذهبتُ إليها وقفت عليها ونظرت بالداخل لا يوجد أحد، ناديت فلا مجيب، تملكني الفضول أكثر لأدخل من النافذة، فنحن في وضح النهار حتى وإن كان الجو شديد الحرارة والمكان هادئ، ولكني لا أعتقد أن شيطان العجوز سيغامر ويخرج نهاراً.

بالفعل دخلت فجميع الغرف أعرفها جيداً منذ تلك الليلة التي دخلت فيها البيت، نظرت فلا جديد غير أن البيت لم يصبح فقط مسكناً للعنكبوت كما كان، بل أصبح يضم طوائف وقبائل من الحشرات، حتى أنني رأيت ثعباناً يزحف باتجاه الغرفة التي كان يخرج منها النور الخافت ليلاً ولهذا السبب لم أدخلها، نظرت في باقي الغرف، أيضاً لا جديد فلازال محصول أرضه وإنتاجها موجود ولكن... حشرات السوس تتحرك فوقها بكثرة، أيضاً معدات عمله كما هي.

ولكني تذكرت تلك الغرفة المشؤومة والتي كانت أكثرهم نظافة وترتيباً، دخلت إليها ولكن يبدو أن أفراد الأمن عاثوا فيها فساداً، فلم يعُد فيها شيء على حاله، أوراقه وكتبه غير موجودة، التمثال محطم كلياً، انقلب كل شيء في تلك الغرفة المرتبة رأساً على عقب.

قررت العودة إلى بيتي والخروج من هذا المكان البائس، وبينما أحاول الخروج من الغرفة إذا بشيء يكسر تحت قدمي!!

كان فوقه قطعة قماش، رفعتها ونظرت، فإذا هي تلك الصورة للفتاة الجميلة التي كان يضعها في يد التمثال.

قمت بإخراجها من البرواز التي تهشّم كاملاً، وأزلتُ من عليها الغبار ونظرت إليها كثيراً لعلّي أعرفها، فملامحها لا تختلف كثيراً عن ملامح أهل القرية ولكني لا أعرفها، ولا أعرف ما هي علاقتها بهذا العجوز؟

لا أعلم ما الذي دفعني لذلك، ولكني قررت أن آخذها معي وأضعها مع الأوراق في حقيبتي التي أغلقها جيداً.

أخذتها معي وعدت إلى بيتي.

مرَّ ما يزيد عن العام ونصف العام قضيتها ما بين القرية وهدوئها نهاراً وظلامها ليلاً، وما بين القاهرة حيث الأصدقاء والجامعة والدراسة، قمت

خلالها بزيارة المرأة العجوز التي كان جدي يزورها عدة مرات، كما حاولت خلالها زيارة الرجل العجوز التي تحولت داره إلى مسكنٍ للحشرات والأفاعي وأرضه لصحراء جرداء في السجن، ولكنه كان يرفض الزيارات كما أخبروني، وفي إحدى زياراتي له أخبرني أحد أفراد الأمن المقربين لي أن العجوز الآن في إحدى المستشفيات الحكومية يتلقى العلاج تأهباً لخروجه عمّا قريب.

استغربت وسألته قائلاً: كيف سيخرج هل عفو صحي أم ماذا؟!!

-فقال لي: لا أستطيع أن أخبرك الحقيقة كاملة حفاظاً على سير التحقيقات، ولكنه سوف يخرج براءة.

- فسألته: كيف سيخرج وهو قاتل لطفل لا ذنب له؟

- فقال لي: العجوز لم يقتل الطفل، وأنّ الموضوع أكبر من ذلك. وقفت مندهشاً مما سمعت ولكني الآن ربما بدأت أعرف سبب تلك النظرات بين العجوز ووالد الطفل في المحكمة، الآن فقط ربما فهمت الحوار الذي دار بينهم بالأعين، وعلمت لماذا كان والد الطفل منكّس الرأس أمام نظرات العجوز ولم يستطِع مقاومتها، والد الطفل يقيناً كان يعرف ببراءة العجوز، ولكن ما الذي دفعه للصمت وهو يرى عجوزاً مسناً لا ذنب له يدفع ثمن جرم لم يرتكبه؟!!

وأنّ قاتل ابنه حُرٌّ طليقٌ؟!!!

أسئلة كثيرة بداخلي ولكني لم أرِد إرهاق الرجل بها فسألته قائلاً: أهي مؤكدة براءة العجوز؟!

- قال: نعم... وعرفنا القاتل.

- فسألته: متى سيخرج العجوز إذاً؟!

- قال: تحديداً لا أعلم ولكن في موعدٍ أقصاه أسبوع.

عدت إلى القرية ولا أعلم ماذا أفعل!!

أنا حقاً في حيرة من أمري، أ أخبر أحداً ببراءة العجوز؟

لا أعتقد أنّ أحداً سيهتم بالأمر، ولكن بما أنّ العجوز لم يقتل الطفل فمن قتله إذاً ولماذا قتله؟!!

ولماذا لم يدافع العجوز عن نفسه ليتحمل ويدفع ثمن جرم لم يرتكبه؟

وإذا لم يقتله حقاً فهو ليس ساحراً كما ادعوا إذاً... فمن يكون؟!!!!

عادت الأسئلة ترهقني من جديد وما وراء العجوز؟

وماذا أفعل الآن؟ وكيف سيعيش في داره هكذا بعد خروجه؟!!

فعزمت النية واتخذت قراراً بإعادة ترتيب بيته كما كان انتظاراً لعودته.

فهو رجل كبير ولا أحد يهتم لأمره فكيف سيعيش في تلك الدار وقد ملأتها الحشرات. لم أخبر أحداً بما سمعته من رجل الأمن وقضيت يومين كاملين أقوم بترتيب بيته وتنظيفه دون علم أحد، ساعدني في ذلك أنّ بيته متطرفٌ وحيدٌ في أحد أطراف القرية.

قمت بإعداد مكان يستطيع النوم فيه في غرفته التي كان يخرج منها النور الخافت ليلاً، ووضعت له بعض الأغراض التي تساعده على المعيشة من فراشٍ ومتاعٍ، وجلست أنتظر خروجه.

مرّت أربعة أيام كاملة وفي اليوم الخامس وصل العجوز إلى داره، لم يكن أحدٌ يعلم بأمر خروجه وينتظره غيري، لذا كنت أول من وصل دار العجوز عند عودته.

ذهبت مسرعاً إلى بيتي وأخذت طعاماً وعدت إلى دار العجوز، كان الباب مفتوحاً، ناديته فلم يُجِب، دخلتُ عليه كان في أول غرفة على يمين الباب الذي ينتصف الدار، كان نائماً على الفراش الذي وضعته له، شعرت وكأنه يستغرب ما حدث في بيته وما سبب هذه النظافة ولكنّه لم يسألني.

فقلت له: أنا مَنْ قُمتُ بهذه الأمور.

فنظر لي ولم يتحدث، لكن يبدو أنّ ما حدث له داخل جدران السجن قد أثّر سلباً على صحته، فهو هش تماماً وتبدو عليه علامات المرض الشديد، حركته ونظرة عينيه أقل حدة مما عهدته عليها قبل دخول السجن، أطال النظر لي ولم يتحدث.

حاولت أن أجعله يتحدث ولكني فشلت، فقمت بتقديم الطعام له ولكنّه أيضاً لم يأكل، فقلت له: حسناً هو بجوارك خذه متى شئت وفي كل يوم سآتي لك بمثله. فنظر لي ولم يتحدث وكأنه يستغرب ما أفعله معه. تركتُه وعدت إلى بيتي وأنا أقول لنفسي متى سيتكلم هذا الرجل وأعلم ما يخفيه؟!!!

ومع غروب الشمس كان خبر خروج العجوز وعودته إلى بيته قد شاع في القرية، وبدأ كل منهم يغني على ليلاه ويفسر على هواه، فمنهم من قال أنّه خرج بعفوٍ صحيّ، ومنهم من ذهب بخياله لأبعد من ذلك وقال إن شيطانه الذي يخدمه هو من ساعده على الخروج، والذي ساعدهم على ذلك هو عدم إفصاح الأمن عن سبب خروجه الحقيقي.

فمنهم من زاره في بيته ليرى ويتأكد بنفسه أنه خرج فعلاً وليس ليطمئن عليه، ومنهم من تجاهل الأمر برمته.

وفي اليوم التالي وقت الظهيرة والطرقات خالية، أخذت طعاماً وذهبت إليه، كان في فراشه كما هو. نظرت إلى طعام اليوم الماضي كان واضحاً أنه قد أكل منه أشياءً بسيطةً، فقلت في نفسي: المهم أنّه يأكل.

قمت بتنظيف بقايا طعام أمس ووضعت له طعام اليوم، وسألته قائلاً: ألا تريد أن تتحدث؟

فنظر ولم يتكلم.

-فقلت له: أهل القرية يقولون أنّك ساحر، وقتلت الطفل للتقرب من شيطانك وهو من ساعدك على الخروج هل هذا صحيح؟

فنظر لي بغضبٍ وشعرت بحرارة أنفاسه التي ارتفع صوتها دون أن يتكلم.

-فقلت له: اهدأ أنا لا أصدقهم فقط أريد أن أعرف الحقيقة.

ولكن غضبه استمر فأدار وجهه عني وكانت شفتاه تتحرك، أصابني حقاً الخوف من حركة شفتيه، فماذا يفعل ذلك الخرف هل يستعين بشيطانه أم ماذا؟ فآثرت الخروج والعودة إلى بيتي.

خرجت من بيته مسرعاً وعدت إلى بيتي، دخلت غرفتي، وأنا لا أعلم ماذا أفعل؟!!

فأمر العجوز الذي قررت أن أتناساه، أنا الآن مجبر على البحث فيه.

جلست ليلتي أفكر كيف سأجعله يتكلم وماذا لو فشلت في ذلك!!
وبعد تفكيرٍ طويلٍ كان آخر ما توصلت إليه، أني سأذهب له بالطعام غداً ومعي أوراقه وصورة الفتاة، وأحاول أن أجعله يتحدث ولكن إن فشلت فسوف أنسى أمره وإلى الأبد، خاصة أن الفرصة جاءتني على طبقٍ من ذهب، لأُعيدَ إليه أشياءَه وأتخلص من ذلك الحمل الذي وضع على عاتقي. ذهبت في اليوم التالي بالطعام ومعي الأوراق والصورة، دخلت عليه كان كما هو نائم على فراشه، الغريب أنه أدار وجهه عني عندما رآني، والأغرب أني وجدته لم يلمس طعام الأمس، فأخذته ووضعت مكانه طعام اليوم.
-قلت له: إن كنت غاضباً من كلامي معك بالأمس، عن أنّك ساحر وقتلت الطفل، فأنا فقط نقلت لك ما يقال منهم ولست مصدقاً، ولو أنني أصدقهم لما أتيت لك بطعام وما اهتمَمْتُ بأمرك، وإلا فما الذي يدفعني لذلك؟!!
ألم يكن من الطبيعي أن أتجاهل أمرك مثلهم لو أنّني أصدقهم؟!!
فنظر لي نظرة شعرت فيها ببعض الرضا من كلامي كانت واضحة على ملامح وجهه علامات الرضا والاقتناع، ولكنه لم يتكلم.
-فقلت له: الطعام أمامك حيثما أردته أطعمة، وقبل أن أذهب أريد أن أعطيك شيئاً.

فنظر لي نظرة شعرت فيها بتعجبه، فأخرجت أولا الأوراق وقلت: هذه لك.

فأخذها بهدوءٍ ولم يتكلم. فأخرجت الصورة وقلت: هذه أيضاً لك.

فاحمر وجهه غضباً واعتدل في جلسته واختطفها مني بقوة وقال بلهجةٍ حادةٍ:

من أين حصلت عليها؟

-فقلت له: اهدأ كل ما في الأمر أني وجدتها عندما كنت أرتب لك دارك منذ عدة أيام، واحتفظت لك بها هي والأوراق.

-فسألني غاضباً والقلق في عينيه: هل رآها أحدٌ غيرك؟

-فقلت له: لا لم يرَها أحد غيري، اطمئن، حتى أوراقك لم أنظر فيها. فنظر لي ولكني شعرت أيضاً بالرضا في نظرته.

-فقلت له: لكن من هذه الفتاة التي في الصورة أهي أمك؟

فنظر لي ولم يجِبْ.

-فقلت له: أستحلفك بالله أن تجيبني، وبعد إلحاحٍ مني ومحاولات عديدة،

-قال لي: سأجيبك ولكن بشرط.

-فقلت له: وما هو شرطك؟

-فقال لي: شرط أن تعاهدني ألّا تخبر أحداً من أهل القرية بما سوف تسمعه، وأن يبقى بيننا سراً حتى نلقى الله، والله شهيد على ما نقول.

-فقلت له: أعاهدك.

-فقال: الآن سل ما شئت.

-فقلت له: لا أدري حقاً من أين أبدأ فالأسئلة كثيرة، ولكن دعنا نبدأ من كلام جدي، فقد أخبرني أنّك لست من سكان قريتنا ولا يعرف أهلك أحداً، ألا يوجد لك أهل؟

-فقال: لا... لي أهل وأقارب فأنا من عائلة كبيرة، وكنت سأبقى من كبار قومي مثل جدك، ولكن حماقة جد أبي هي من أضاعتنا وأطاحت بنا إلى هنا.

-فقلت له: كيف أخبرني؟

-فقال لي: أنا لم أعِش تلك الفترة ولكن سأروي لك ما حدث على لسان أمي قبل وفاتها، صمت قليلاً واستطرد قائلاً: ذات يوم كنت أجلس أنا وأمي هنا أمام هذا الباب وسألتها، فقالت: إنّ جد أبي كان كبيراً لقومه والكلّ يؤتَمرُ بأمره، أحب امرأة وتزوجها، ولكنها كانت عنيدة وقوية ولم تكن من عائلة كبيرة، وكان كلّ شيء تركه له أبوه ملكاً له يتحكم فيه لأنه كبير القوم، وقبل وفاته بأيام ولشدة حبه لزوجته قام بتمليكها كل شيء ورثه عن أبيه، وهذا ما أثار غضب إخوته وأبناء عمومته، وبعد وفاته، آثرت تلك المرأة نفسها على الجميع حتى زاد غضبهم وانقسموا فيما بينهم، وكان جدك يحاول دائماً

تهدئتهم ويعدهم أنه سيحاول مع أمه لتعود الحقوق لأصحابها، مرّ الوقتُ وهي متعنتة وتتحكم في كل شيء رغم كبر سنها، حتى أنّها كانت تسكن وحيدة في بيتٍ كي لا يطالبها جدك بإعادة الحق لأهله.

ومع مرور الوقت كان الغضب والغل والحقد يزيد بين أبناء العمومة، والتعنت والتجبر يزيد مع المرأة، وذات صباح تم العثور على جثتها مذبوحة العنق في أحد حقول القرية، وبيتها اشتعلت فيه النيران حتى تحول لكومة رماد، الغريب في الأمر، أنّ رجلاً قد شهد على جدك أنه رآه يقتل أمه وتم الحكم عليه بالسجن لعدم توافر الأدلة، وبعد انقضاء المدة خرج جدك وتقصى أمر الرجل الذي شهد عليه، فأخبره أن من فعل ذلك بأمه هم أبناء عمومته، وأنهم أرغموا الرجل على شهادته هذه التي شهدها زوراً، وخلال فترة سجن جدك كان أبناء العمومة قد استولوا على كل شيء حقهم وحق جدك، وبعد خروج جدك حاول التوصل معهم إلى حلٍ لاسترداد حقه ولكنهم تعنتوا كما تعنتت المرأة وطمعوا كما طمعت.

وفي أحد الأيام دار شجار بين جدك وأحد أبناء عمومته فقتله جدك وفرَّ هارباً بنا خشية القصاص، بدأت رحلة الهروب من محافظة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى، حتى استقر بنا المطاف هنا في هذه القرية، وتفهم كبارها

الأمر، وتعهدوا لجدك بالحماية، وأكرموا ضيافتنا، وها أنت هنا بينهم الآن يا بني تعيش معهم وتتعلم مثلهم وكأنك واحدٌ منهم.

وعاد مجدداً لصمته...

-فسألته قائلاً: إذا كان أهل القرية فعلوا مع جدك ومعك كما قالت لك أمك، فلماذا اعتزلتهم؟

-فنظر لي وقال: لا أدري من أين أبدأ؟

-فقلت له: ابدأ من حيث شئت ولكن المهم أن تخبرني.

فاعتدل في جلسته أكثر، وطلب مني بعض الشاي.

-فقلت له: حسناً سأعدّه ولكن تكلم.

-فقال: يا بني القصة التي أخبرتني أمي عنها لم تعنِني كثيراً، فقد نشأتُ هنا وتربيتُ بينهم في هذه القرية، كان كبيرهم كبيري وكلهم أخوالي وأعمامي، كان جدك ومن في عمره رفاق طفولتي كانوا إخوتي، كنت أعيش معهم كما يعيش الطفل بين أهله، كانت الأمور تجري بشكلٍ طبيعي وجيد، حتى بلغت السابعة عشر من عمري، والتحقتُ بالجامعة في القاهرة، كانت في هذه القرية فتاة جميلة، كبرت تحت عيني، كنا أطفالاً وكبرنا سوياً، ولأن القلوب بيد الله يا بني فقد أحببتُها حبّاً شديداً، كانت دفئي وقتَ بردي، كانت قوتي وقت

ضعفي، كانت لي أمي وأختي وابنتي وصديقتي، كانت القمر الذي ينير لي طريقي وسط الظلام، كنت قليل البوح لها بالحبِّ ولكنها تعرف، لم نكن نلتقي كثيراً، ولكني كنت أراها في كل دقيقة، كان طيفها يلاحقني أينما رحلت وارتحلت، كانت أقرب لي من الهواء وأغلى عندي من الماء الذي هو سبب كل حياة، كنت أتقلب ليلي في سريري يخاصمني نومي لتكون أول وأحبُّ وجهٍ أراه في الصباح، وكنت أنتظر أن يمرَّ اليوم ليأتي الليل، وأجد هدوءاً وأشعر كأني وطيفها وحيدين في هذه القرية، كانت شمسي وظلي وليلي وقمري، كانت لي الدواء وقت الداء، كانت الأمل وقت اليأس والألم، كانت أميرةً وملكةً توجتها على عرش قلبي راضياً، وأعلنت دقات قلبي لها الولاء والطاعة مدى الحياة ولن تكون طاعة لغيرها بعد الله. وصمت قليلاً، نظرت في عينيه، كنت أرى في عينيه لمعةً وكأنّه شاب مراهق في عنفوانه، والدموع أصبحت على أطراف عينيه....

-فسألته: ألهذا الحد كنت تحبها؟

فنظر لي نظرةً فيها بعض من السخرية

-وقال: وكيف لا أحبّها وهي كانت روحاً تسكن روحي!!

-فسألته: هل تزوجت أحداً غيرك؟ وأين هي الأن؟ ومن تكون؟

فصمتَ وعادت علامات الغضب عليه وقال بلهجةٍ حادةٍ: لا لم تتزوج غيري ولن تتزوج غيري.

-فاستغربت وقلت له: إذاً أين هي الآن وابنة مَنْ في القرية هي؟

فصمتَ وكأنّه لا يريد أن يخبرني.

-فقلت له: لمَ الصمت ألم نتعاهد أن تخبرني وأنا لن أخبر أحداً؟!!!

-فقال بغضبٍ: تعاهدنا ألّا تخبر أحدًا بما سأقوله لك ولكن لم نتعاهد أن أخبرك كل شيء، ولكن يكفيك أن تعرف أنها كانت ابنة واحد من كبار هذه القرية.

-فقلت له: لا أريد أن أعرف من هي، ولكن أخبرني أين هي الآن؟

فتنهد تنهيدة شعرت فيها بحرارة أنفاسه

-وقال: في سنوات الجامعة كنت دائم الغياب عن القرية، وكانت أسعد لحظات حياتي عندما أستقل السيارة من القاهرة متجهاً إلى هنا، وكان أول شيء أفعله أني أراها، كانت دائماً تتواجد عند تلك الشجرة الكبيرة في أطراف القرية، كثيراً ما التقينا هناك، وفي إحدى مرات عودتي من القاهرة، ذهبت إلى هناك ولم أرَها، مرَّ يومٌ واثنان وثلاثة لا أعرف كيف مرّت، ولكنها كانت كالقرون، أتجول في القرية ليل نهار ولكني لم أرَها، كنت أشعر وكأن قلبي

ينفجر وعقلي تائه، كنت أخشى أن أسأل عنها فيعرف أحدهم السر الذي كان ومازال بيننا، صدقني يا بني كنت أغار عليها عندما يلمسها إخوتها ويحادثها أقاربها، كم تمنيت أن يخلو الكون من البشر جميعاً، ولا يسكنه إلا أنا وهي، فأكون أنا فقط من يسمعها ويراها، جلست أيامي أتخبط كالمجنون لا أعرف ما حدث لها، وفي أحد الأيام وجدت حركةً غريبةً ومريبةً أمام بيتهم الذي كنت أراقبه، ولم أغفُ لحظة عن مراقبته آملاً في خروجها أو سماع صوتها.

خرجت يحملها إخوتها بينهم كانت وكأنّها جثة هامدة وعليها علامات المرض الشديد، ويبدو أن أهلها أخفوا أمر مرضها لأن هذه هي عادات قريتكم، شعرت وكأن جسدي أصبح مشلولاً، وقلبي استقل السيارة معهم، وقفت مكاني كالأخطل لا أدري ماذا أفعل؟ وماذا أقول؟ كنت كالميت ولكن بجسدٍ حيّ، عدت إلى بيتي، كانت أمّي لا تزال حية فطلبت منها أن تذهب لتعرف الأمر. ولأن أمّي كانت محبوبة بينهم عرفت منهم أنّها أصيبت بمرضٍ في قلبها يعجز الطب عن شفائه، وأنها تأخذ جرعات كبيرة من الأدوية الثقيلة، تجبرها على عدم النوم قبل الثالثة فجراً، وهنا صمت قليلاً وقال: لن أخبرك عن حالي حينها فيكفيك أن تعرف أني كنت منهكاً كما مريضٍ أصم وأعمى

وأبكم بجواره دواؤه ولا يراه، ويموت ألماً ولا يستطيع البوح، ويسأله من بجواره أتريد شيئاً نساعدك به ولا يسمعهم، هذا تماماً ما كان ينطبق عليّ حينها، وصمت بعد أن سالت دموعه....

-فسألته: وماذا حدث بعدها؟

-فقال: انقطع كل اتصالي بها لم يتبقَّ سوى أمي، هي وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا، تذهب إليهم كل يوم تحمل لها خبراً مني وتعود لي بخبر منها.

-فقلت له متعجباً: كيف لم يسمعها أحد منهم وهي تتحدث مع أمك عنك؟

- فقال لي: ألم أخبرك أن ما كان بيننا سراً، وما زال سراً، حتى أمي لم تكن تعرف.

- فقلت: إذاً كيف كان يتم التواصل بينكم؟

- فقال: عن طريق ورقة أرسلها لها مع أمي وتعود لي بمثلها منها، وأمي كانت أميّة لا تقرأ ولا تعرف ماذا في الأوراق، هذه الأوراق هي بعض من الأوراق التي كانت معك، حتى هذه الصورة هي صورتها يا بني.

-فسألته: وماذا حدث؟

- قال: تملّك المرض من أمّي وأنا في عامي الجامعي الثالث، عانت معه طويلاً حتى وافتها المنية، وانقطعت طريقة الاتصال بيننا، مرّت الأيام وأنا أتخبط

كالمجنون حتى نومي خاصمني، فلم أعد أنام قبل الثالثة فجراً كما تفعل هي من قوة الدواء، وصارت هذه عادتي منذ ذلك الحين حتى يومي هذا، أنهيت دراستي وقررت أن أذهب إلى والدها وطلبها للزواج، فتعجبت وقاطعته متسائلاً: أنت تعلم بعرضها وأردت أن تتزوجها؟!! ألم تقل أنّ المرض عجز الأطباء عن شفائه؟

-فقال: نعم كنت أعلم ولكني كنت أتمنى أن أعيش ما تبقى من عمري بجوارها وفي خدمتها، فو الله ما تمنيت إلا أن أسهر ليلي بجوارها حتى يرتاح قلبها من الدواء وتنام، وأعمل أنا نهاراً لأوفر لها قيمة الدواء، هكذا كنت أتمنى... وصمت...

- فسألته: وماذا قال لك والدها؟

هنا تغيرت نظرة العاشق المراهق الذي كان يتحدث بها وتحولت شيئاً فشيئاً إلى نظرة غضب وحقد وقال: هذا هو اليوم الذي أيقنت فيه بأني غريب في هذه القرية، وأنّ ما كانوا يفعلونه معي عطفاً وليس حقاً من حقوقي عليهم، صدقني يا بني هذا هو اليوم الوحيد الذي بغضت فيه جدي وأمه على تعنتها، وتمنيت أن يبقى جدي في قريته حتى لو قتله أبناء عمومته، فليس هناك أجمل من أن تكون بين أهلك وناسك وعزوتك.وصمت....

-فسألته: ماذا قال لك والدها لتقول كل ذلك الكلام؟!!

- فقال: عندما طلبت منه طلبي، نظر لي بسخريةٍ وقال: نحن لا نزوّج الأغراب وأنت غريبٌ في قريتنا، كلماته كانت واضحة ولكن أمل العاشق يلهيه ويجعله يختلق الأعذار، فقلت في نفسي ربما هو يرفض بسبب مرضها، وقلت له: أنا أعلم بمرضها وهذا لا يهمني، فغضب الرجل واحمرت عيناه وكأني أعايره لا أعلم أيّ عقل خرب هذا الذي يمتلكه، وقال لي بحدة: إذا كنت تعلم بمرضها فلماذا جئت؟ هل تعلم أن دارك التي تسكنها وأرضك التي ترعاها إذا قمت ببيعهم لن يكفيها دواء لمدة شهر، فكيف تجرؤ على طلبك؟ عد إلى حيث أتيت وإياك أن يعرفَ أحدٌ بمرضها أو بطلبك.

عدت وأنا أحمل في قلبي حيرة وكسرة وكأن العالم كله فوق كاهلي، شعرت وكأن قلبي بين جبلين يطبقوا عليه فتتكسر الأضلاع، عدت من عنده ولا أعلم أين أذهب؟!!

اختلط الحابل بالنابل عندي وأصبحت كل الأمور سوداء في عيني حتى وإن كانت ناصعة البياض، أصبح ليلي مثل نهاري كلاهما أسود في عيني، وكيف لا!! وهذا الرجل الأحمق بكلماته هذه اقتلع قلبي مني وجعلني جسداً بلا قلب، عدت إلى بيتي هذا وجلست هنا مكاني أياماً لا أدري ما عددها،

لا أريد أن أسمع أحداً ولا أريد أن أرى أحداً، فقد علمت الآن أن هذه القرية وكل أهلها ما كنت أحبهم إلا لأجلها، مرّت أيام وأنا على حالي هذا لا أعرف ماذا أفعل، أ أذهب إلى القاهرة وأتوه بين الزحام وأنسى أمر القرية؟ أم أعود إلى قريتي الأصلية حتى لو قتلني أبناء العمومة قصاصاً لجدهم؟ وكلما همَمْتُ لفعل إحداهن، كنت أشعر أن جسدي ينقسم إلى جزأين جزء يتبع العقل ويريد الرحيل، وجزء يتبع القلب ويريد البقاء، ظللت هكذا لأيام حقاً لا أعلم كم عددها تحديداً. وذات يوم هاجت القرية بخبر وفاتها، وسرعان ما قاموا بدفنها، حقيقة لا أعلم ما دار بداخلي حينها، ربما هو شعور الحزن امتزج ببعض الفرحة....

-فقاطعته وسألته قائلاً: أتفرح في موت من أحببت؟

-فقال: الأمر ليس كذلك ولكني كما أخبرتك شعور العاشق يلهيه ويصور له أشياء تريح صدره حتى لو كانت غير حقيقية، ووقتها دار بداخلي أن القدر فعل ذلك حتى لا يتزوجها غيري رغماً عني، وأنّها رحلت لتعمّر لنا بيتاً في الآخرة في انتظاري هناك حيث لن يستطيع أبوها منعنا، وهكذا كبر هذا الشعور بداخلي حتى أصبح يقيناً، وكنت دائماً أصلي وأدعو الله أن لا يحرمني منها في الآخرة كما حرمني منها في الدنيا، مرّت الأيام والشهور والسنوات وأنا

أعيش منعزلاً عن العالم، ولمَ لا وقد مات عالمي، ظللت هكذا حتى اعتاد الناس وتعودت، وهذا هو سرُّ عمري وسبب عزلتي يا بني، وصمت....

الأن دار عقلي وعرفت أنه كان يتواجد في المقابر لزيارتها، ولكن لماذا ليلاً؟ وما الحرب التي أخبرني بها أول مرة رأيته في المقابر؟ فسألته عما دار داخل عقلي.

فأجاب قائلاً: ما سأقوله لك حقاً ولكنه ليس كل الحقيقة فخذ فقط ما سأقوله أما عن وجودي ليلاً فحتى لا يراني أحد وينكشف سري وسر معشوقتي الذي أخفيته سنوات وسنوات، فأنا كنت وما زلت أحبّ كل شيء منها وفيها، حتى تلك الشجرة الكبيرة التي أجلس تحتها دوماً، هي الشجرة التي كنا نلتقي عندها، أما عن الحرب فهي حرب بين العقل والقلب.

وصمت...

حقاً لم تعجبني إجابته أشعر أن وراءها شيءٌ خفي ولكني سألته مستغرباً حرب بين العقل والقلب، أتهزأ مني؟

-فقال لي: لما تقول هذا؟

-فقلت: لأنك تقول إن الحرب التي تكلمت معي عنها هي بين القلب والعقل فكيف يتحاربون؟!!

-فابتسم وقال: نعم يا ولدي يتحاربون وهذا شعور لا يعرفه إلا عاشقٌ فقدَ معشوقه، ولكني سأخبرك، تقوم حرب بين العقل والقلب فهم ملوك الجسد، ولكل منهم جيش جرار، العقل جيشه الكرامة والكبرياء وهم يحبون الواقع، والقلب جيشه من المشاعر والأحاسيس المبعثرة والاشتياق، وتكون ساحة المعركة هي جسدك، وقتها سوف تتمنى الموت واسأل الله ألّا يجعل في جسدك حرب مثل هذه يا بني، أما أنا فلم تكن حرب واحدة، بل كانت سلسلة حروب أطول وأشد شراسه من حرب البسوس التي فاقت الأربعين عاماً، صولات وجولات وفرٍّ وكرٍّ، والخاسر الوحيد هو أنا وجسدي المنهك البالي.... صمت قليلاً واستطرد قائلاً: لن أحكيك عن أمر المعاناة ولكن لك أن تتخيل أن تظلّ أربعين عاماً تنزف ألماً وليس دماً، فنزيف الدم قد يميتك وترتاح أما نزيف الألم هو موت كل ليلة للرُّوح، ما أعانني على التحمل إلا صورتها التي لم تفارق خيالي، وأملي أن نلتقي في جنة الرحمن المنان، وهكذا أنا من يوم وفاتها يأتي الصباح فأدعو الله أن لا يأتي المساء إلا وأنا بجوارها، ويأتي المساء فأدعو الله أن لا يأتي الصباح، ولكن دون جدوى، فها أنا ذا ما زلت حيّاً وأحادثك، ولكني على يقين أنّها قد اقتربت وسيأتي صباحٌ أو مساءٌ عمّا قريب وأكون بجوارها فأنا حقاً أشتاق إليها..... وصمت

-فسألته: وماذا عن أمر الطفل؟ وأمر الأوراق والطلاسم والكتب التي عنده؟

-فابتسم وقال: غداً سأجيبك، أما الليلة فقد حان وقت نومي الساعة الآن الثالثة فجراً.

فاستغربت وقلت في نفسي إن العجوز يتهرب، كيف عرف أنّ الساعة الآن الثالثة ولم ينظر إلى ساعة أو هاتف؟

وضعت يدي في جيبي وأخرجت هاتفي نظرت في الساعة، توقيتها الثالثة ودقيقة، تعجبت وسألته: كيف عرفت أنها الثالثة؟

-فقال لي: يبدو أنك تنسى، ألم أخبرك أني منذ أربعين عاماً لم أنم قبل الثالثة فجراً كما كانت تنام، ولست بحاجة إلى هاتف أو ساعة لأعرف التوقيت منها.

-فقلت له: حسناً، وساعدته في إعداد فراشه، وقلت له غداً نلتقي، وانصرفت.

خرجت من عنده متجهاً إلى بيتي، ولسان حالي يردد، كيف مرَّ الوقت هكذا بسرعة مع العجوز!!

دخلتُ غرفتي واستلقيت على سريري، تذكرت كلّ الحديث الذي دار بيني وبين العجوز، آه... اليوم فقط علمت أنه عاشقٌ ولهانٌ وليس عجوزاً يملؤه السحرُ والجنون.

وأنّ الأوراق التي كانت معي كتبها القلب، ولم تكتبها أصابع ساحر تخدم شيطان.

ولكن السؤال الذي يدور بعقلي الآن، ما سبب الطلاسم والكتب ككتاب العزيف لتقصي الماضي الغامض بإنطاق جثث الموتى؟ هذه الأشياء رأيتها بعيني ولا مجال للشك في ذلك، إذاً فما علاقتها بالعجوز؟!!

ووسط تفكيري غلبني النعاس ويبدو أني كنت مرهقاً، فلم أستيقظ إلا في اليوم التالي وقبل غروب الشمس بقليل، تذكرت العجوز وطعامه فنهضت مسرعاً من مكاني، أعددت له الطعام وسرعان ما ذهبت إليه.

كان كما تركته بالأمس طريح الفراش، فحقاً حالته الصحية سيئة منذ خروجه من السجن.

دخلت عليه واعتذرت له عن تأخيري اليوم عليه في الطعام.

جلست بجواره وطلبت منه أن يأكل، ولكنه أخبرني أنه لا يستطيع الآن وأنّه سيأكل لاحقاً.

نظرت إلى وجهه الشاحب وكلماته المتقطعة فعلمت أنّه متعبٌ، وهمَمْتُ بالرحيل.

-فسألني: أين أنت ذاهب؟ أليس لديك أسئلة اليوم؟

-قلت له: بلى عندي ولكني أشعر أنّك مرهق اليوم ولا أريد أن أزيد متاعبك أكثر.

-فقال: لا عليك اجلس وسل ما شئت، لكنك عندما تأخرت اليوم في المجيء أصابني التعب فتناولت أحد الأدوية القوية التي صرفته لي الدولة تعويضاً عن سجني، وهذا الدواء ثقيل يجعلني أشعر بالنعاس رغماً عني، فأعذرني إن غلبني نومي وأنت تتحدث.

-فقلت له: لا عليك.

-فقال لي مبتسماً: الآن هيّا ابدأ وسل.

-فقلت له: كنت أريد أن أسألك عن الطفل، ومن أتى بجثته إلى جوار بيتك ومن قتله ولماذا قتله؟

-فقال لي: لماذا ذبحه ومن ذبحه هذا الأمر لا يعلمه إلا الله يا بني ووالد الطفل فقد نظرت كثيراً في عينيه وعلمت أنه يقيناً يعلم من قتل ابنه ولماذا قتله، أنا على يقين أن هذا الرجل يخفي سراً كبيراً يا ولدي ولكن إن أردت أن تعرف الحقيقة كاملة وسبب قتل الطفل تقصى أمر أبيه، فإن وراءه سراً خطيراً هذا ما عرفته في عينيه عندما نظرت طويلاً فيهما في المحكمة، ولكني لم أستطع

أن أعرف ما وراءه وما السبب، أما عن وجود جثة الطفل بجوار بيتي، فأعتقد بل إني على يقين أن الله يحبني كثيراً...

-فقاطعته وسألته متعجباً: كيف يحبّك الله وقد كانت سبباً في سجنك؟!!!!

- فقال: نعم... يا بني يحبني كثيراً، ولتفهم هذا الأمر جيداً عليك أن تعلم، أنّ الله عندما يحبّك سيعاقبك على كل أفعالك السيئة في الدنيا حتى تقابله يوم القيامة وقد سقط وزرك،

- فسألته متعجباً: وما الذنب والوزر الذي فعلته أنت ليعاقبك به الله عاماً ونصف العام داخل جدران السجن؟!

فصمت قليلاً وقال: وعدتك بأن أقول الحقيقة ولكني لم أعدك بأني سأقول كل شيء، دعني أخبرك بما يمكنني قوله أما ما لا يمكنني قوله فقد كان بين يديك وعلى يقين أنك يوما ما ستعرفه.... فحاولت مقاطعته لأطلب منه قول كل شيء، وما هو هذا الشيء الذي يخفيه وكان بين يدي؟!!!! على يقين الآن أن الأوراق لم تكن كلها غرامية، ولكنّه ضغط على يدي بلين أراه ولكنه كان أقصى قوته أعلم ليجعلني ألتزم الصمت واستطردَ قائلاً: أما ما يمكنني قوله، أنني منذ أن توفيت معشوقتي واعتزلت القرية بل والعالم بأسره، كنت يائساً، أتعجل الموت ولم يأتِ، فأعمارنا بيد الله، ولأني أعرف حكم المنتحر خالداً

مخلداً في نار جهنم، لم أجرؤ على أن أقابل ربي كافراً، مرّت الأيام والسنوات والحرب تشتعل وتزداد يوماً بعد يوم بين عقلي وقلبي، سعيت جاهداً لإيقافها ولكني لم أستطع.

ولأني كنت مولعاً بالقراءة، استعرّت بعض الأوراق والكتب من صديق لي كنت أعرفه في الجامعة، ليس بغرض السحر والكفر بالله فأنا أعرف أنها أشد وزراً من الانتحار، ولكن اليأس كان قد تملكني، ونصيحتي لك يا بني إذا وجدت شخصاً يائساً يوماً ما، فاحتويه ولا تنصحه، فهو أحوج ما يكون للاحتواء وليس للنصح، ولأني لم أجد من يحتويني، كنت أطلع على هذه الأوراق وهذه الكتب كي يأتيني حلم في منام أرى فيه معشوقتي التي أرهقني فراقها، يكفيني أن تعرف ذلك فقط والباقي كما أخبرتك ستعرفه حتماً، لكن ولأن الجزاء من جنس العمل كانت هذه الكتب هي دليلُ إدانتي على جرمٍ لم أفعله، وسببٌ في قضاء عامٍ ونصف العام داخل أغلال السجن وهلاكه، ولهذا رفضت مرافعة المحامي، وآثرت الصمت، فقد كنت على يقين أن الله فعل بي ذلك لأنه يحبني، وأراد أن يكفّر عني ذنباً لم أقصد فعله ولكنه كان رغماً عني، ولم لا؟ وقد كانت طعنات الحروب بين قلبي وعقلي،

ووحدتي، وعدم احتوائي واشتياقي لمعشوقتي طوفان هائج لا يمكن إيقافه، أفهمت الآن يا ولدي لماذا قلت لك إنّ الله يحبني؟!!

-أومأت له برأسي وقلت: نعم علمت أيّها العجوز العاشق.

-فقال لي: أكمل أسئلة.

-فقلت له: لم يعد عندي أسئلة سوى التي لا تريد إخباري بها وسأنتظر اليوم الذي أعرفها فيه كما وعدتني، ولكني فقط أود أن أعتذر لك وأريدك أن تسامحني، لأني جذبتك بعنفٍ في المقابر يوم موت جدي، ولكن حقاً لم يكن بإرادتي.

-فأبتسم وقال: لا عليك يا بني فأنا أعلم كم كنت متعلقاً به وتحبه، أنا أيضاً كنت أحبّه، وصدقني قلبي كان مفطوراً لموته، فقد كان صديق طفولتي ورغم اعتزالي القرية إلا أنه كان آخر أمل ألجأ إليه بعد الله فقد... فقد...كان.....

وأثناء حديثه عن جدي صمت قليلاً بعد تقطع كلماته وأغمض عينيه، وذهب في سبات نومٍ عميق، يبدو أن تأثير الدواء اللعين كان قوياً بالقدر الكافي الذي يجعله يغير وقت نومه وعاداته التي اعتادها طيلة أربعين عاماً.

نظرتُ إليه وأنا لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل؟

كانت صورة الفتاه بجانبه، ودون أن أشعر ولا إرادياً وجدت نفسي أحدّثها قائلاً: اعذريه اليوم، الدواء قويٌّ وهو ما جعله ينام قبلك، سامحيه فهو لم يقصد إهمالك يا عزيزتي.

قمت بوضع الغطاء عليه جيداً ووضعت الصورة على صدره ليحتضنها وهو نائم، خرجت من عنده وعدت إلى بيتي.

كنت أتساءل في نفسي هل هناك في هذا الكون عاشق أعظم وأوفى من هذا العجوز؟!!

وهل يمكنني أن أفعل يوماً مع فتاة مثل ما فعل هو؟

هل يمكنني أن أفعل من أجل فتاة حية مثل ما فعل العجوز مع فتاة ميتة؟

مرّت ليلتي وفي اليوم التالي ذهبت بالطعام إليه، ولكن حالته كانت أسوأ من أمس، وضعت له الطعام وحاولت أن أشجعه على الطعام فأكلنا سويّاً أشياء قليلة، وأخذ دواءه، وبدأ يحدثني بأمر الفتاة معشوقته وكيف كانا يلتقيان، وأنّه يتمنى أن تكون أول شخص يراه بعد موته، ووسط حديثه غلبه نومه ففعلت معه مثل ما فعلت بالأمس ووضعت الصورة على صدره.

مرّت الأيام، واعتدت على العجوز وأحببت كلامه عن معشوقته وعن ذلك الحبّ الذي عاش لأجله المعاناة وذاق فيه ويلات الموت دون أن تخرج روحه

من جسده ويفارق الحياة، هو أيضاً كنت أشعر أنه ينتظرني أن أبدأ الحديث عنها لتلمع عيناه شوقاً، وينطق لسانه حبّاً، وينبض قلبه عشقاً لها.

كان في كل يوم تسوء حالته أكثر فأكثر، وفي أحد الأيام، وقد كانت علامات الموت تظهر عليه وليست علامات المرض فقط، قال لي: قبل أن يغلبني النوم بسبب الدواء أريد أن أطلب منك شيئاً؟

-فقلت له: اطلب ما شئت أيها العاشق.

-فقال: خذ هذه الأوراق ولا بأس أن تطلع عليها، وابتسم وأكمل، أنت الآن تعرف سرَّ حياتي ولن تقف على الأوراق، ولكن إن أردتَ أن تطلع عليها فأرجو أن تطلع عليها بعد موتي لأنها ستكشف لك ما أردت أن أخفيه عنك.

-فقلت له: سوف آخذها ولكن اطمئن لن أطلع عليها إذا كان فيها ما تود إخفائه.

-فقال لي: انتظر حتى أكمل كلامي قبل أن يأتي اللعين ويأخذني منك (قاصداً النوم)

وأكمل قائلاً: هذا ما يخص الأوراق، وكما أخبرتك لا بأس أن تطلع عليها بعد موتي، هذا أولاً، أما ثانياً، فهذا رجاءٌ أو إن شئت فاعتبره وصية ميت،

أريدك أن تتابعني كل يوم كما تفعل الآن، فأنا على يقين أنّها أيامي الأخيرة ،وسيطرق الموت بابي ربما الليلة، وستكون أنت أول من يعلم من القرية بموتي، عندما يحدث ذلك لا تخبر أحداً منهم، ولكن هيئني جيداً أولاً فهذا سيكون أول لقاء بمعشوقتي بعد فراق أربعين عاماً عجاف، وأن تتولي أمر دفني معهم، وإياك أن تنسى أن تأخذ هذه الصورة قبل أن يأتي أحد من القرية وتضعها مع هذه الأوراق فأنا سأكون حينها معها ولست بحاجه للصورة، ولكن... أستحلفك بالله يا ولدي ألّا تجعل أحدهم يراها، وإذا أردت يوماً أن تتخلص من الأوراق والصورة فأرجوك ألّا تحرقهم ولا تمزقهم، ولكن اذهب إلى تلك الشجرة الكبيرة في أطراف القرية والتي كنا نلتقي عندها أنا وهي وأخبرتك عنها، وقم بدفنهم تحتها، وتأكد جيداً بعد دفنهم أنه لا يمكن لأحد الوصول إليهم، ليكون حينها قد دفن سرنا معنا وإلى الأبد.

وعدته بذلك، وكلّ ما كان يدور بخاطري، ألهذا الحد يخشى حتى على صورتها من الحرق أو التمزيق؟!!

وأثناء شرود ذهني غلبه النعاس ونام كعادته، خرجت من عنده وعدت إلى بيتي.

مرّت أيامٌ قليلة وأنا أتردد إلى بيته بالطعام وأطمئن أنه مازال حيّاً.

وفي أحد الأيام، ذهبت إليه بالطعام كعادتي ولكنه لم يكن مستيقظاً، اقتربت منه كان وكأنّه نائمٌ، ولكن رأيت الصورة في يده وقبضته محكمة عليها، حاولت إيقاظه لكن دون جدوى فأيقنت موته، أخذت الصورة من يده ووضعتها في معطفي، وهيأته كما يليق بعاشقٍ كما طلب مني.

خرجت وأخبرت أهل القرية بموته، حضر منهم من حضر، غسلوه وكفنوه وكنت معهم كما وعدته، لم أسمع صراخاً ولا نحيباً من أحد ولا نواحاً، كان الجميع حاضراً ولكن المشهد لا ينم عن وجود متوفٍ كما اعتادت القرية في هذه الحالات، أخذوه إلى المقابر ودفنوه، اقتصر الحضور في المقابر فقط على أهل القرية، حتى العزاء لم يكن سوى فرصة لاجتماعهم، وتبادل الكلام، كانت أشبه ما تكون بجلسة سمرٍ ليس إلا.

حتى أنّني لم أعرف من فيهم يعزي من؟!!

أيضاً لم يخلُ العزاء من الضحكات، وتبادل الحديث عن موت ساحر، وكأن لسان حالهم يقول: مات في قريتنا ساحرٌ فاسترحنا من أذاه، بعضهم كان يحمد الله لموته، لم يكن وقت العزاء طويلاً فسرعان ما انصرفوا.

ومع انتصاف الليل، وهدوء القرية، وجدت نفسي أسير إلى المقابر، لا أعلم لماذا كان الشعور الغالب عندي فرحتي وأنا ذاهب إليها!!

وصلت أولاً مقبرة جدي دعوت له كثيراً، واقتربت بعدها من قبر العجوز دعوت له أيضاً، وأخبرته أني هيّئته كما طلب مني؛ ومن ثم ذهبت إلى القبر الذي كان يجلس عنده أول ليلة رأيته هنا، لم أعرف ماذا حدث وماذا قلت! ولكني تحدثت كثيراً مع معشوقته في قبرها، أخبرتها أنه كان أوفى عاشق رأيته في حياتي، طلبت منها أن تسعده وأن تعوّض عزلته العالم بعدها، كنت أحادثها كأنها أمامي وتسمعني، وأخيراً استأذنت بالانصراف كي لا آخذ وقتاً منها فهذه أول ليلة يجتمع فيها العشاق بعد فراق أربعين عاماً.

وانصرفت وعدت إلى بيتي، أخفيت الصورة والأوراق جيداً، مرّت الأيام، انقضى عامان انتهت فيهم دراستي في الجامعة، كانت الأمور تسير بشكلٍ جيدٍ عدا صديقي الثري الذي تخلّف عنا في الجامعة وتقمّص دور الشيطان في أبهى زينته واستطاع أن يوقع فتاةً في غرامه كذباً، تطوّرت الأمور بينهما كثيراً وصل الأمر أنهما كانا يتقابلان في إحدى الشقق ويبدو أن أحد إخوتها عرف بالأمر، وذات يوم دخل عليهما الشقة وطعن صديقي الثري عدة طعناتٍ، انتهى الأمر بكسرٍ في الجمجمة، وفقدان للذاكرة سجن على إثرها أخو الفتاة، أما الفتاة فقد اختفت من يومها لم نعلم عنها شيئاً، أما في القرية لم يختلف شيء غير أنني كنت دائم التردد على المقابر لزيارة جدي والعاشقين أوقات

تواجدي في القرية التي اكتظت بالأحاديث عن العجوز وكم كان ساحراً ماهراً، حتى أصبح في وقتٍ وجيزٍ جداً أسطورةً من أساطير الخرافات في القرية، حتى أني سمعت يوماً أمي تهدد أختي الصغيرة بأنها سوف تضعها في بيت العجوز الذي يقتل الأطفال إن لم تنم، كنت أسمع أحاديثهم وقت سمرهم عن أرض العجوز التي أصبحت جرداء وأنها أرض ملعونة ومن الغباء أن تمر منها ليلاً، وأنّ بيته الذي أصبح سكناً للحشرات هو بيت اجتماع الشياطين، وفي أحد الأيام مرض أحد أبناء عمومتي مرضاً شديداً كان يجبره على إصدار أصوات وتشنجات بطريقةٍ غير طبيعية، وعندما ذهبت لزيارته سمعتهم يتحدثون عن أنه مرّ ذات ليلةٍ من أمام بيت العجوز، وكانت الشيطانة ترضع صغارها وفزعهم بمروره فدخل الشيطان جسده وهو من يصدر هذه الأصوات، كنت أسمع هذه الكلمات ولا أعلم ماذا أفعل؟ هل أدافع عن العجوز الذي ظلموه حيّاً وميتاً أم ألتزم الصمت؟!!!!

وخلال هذه الفترة دفعني الفضول لقراءة أوراق العجوز رأيت فيها عجب العجاب مما اضطرني لإعادة صياغتها وكتابة كل ما احتوته هذه الأوراق في أوراق جديدة، انتابني الرعب منها في أوقات وأخرى كنت أتوه في بحرٍ من العشق تعجز الكلمات عن وصفه.

بعد أن أنهيت دراستي وأصبح تواجدي في القرية قليل، خشيت على أوراق العجوز وصورة معشوقته أن تقع في يد أحدهم، فقررت أن أوفي بعهدي معه. وذات ليلة حالكة السواد وقد أصبحت القرية هادئة تماماً وطرقاتها خالية، أخذت أوراق العجوز والصورة معي وهناك تحت تلك الشجرة كما طلب مني حفرت ودفنتها، وبعد أن انتهيت من دفن آخر أسرار العجوز عدت إلى القرية، التي كانت هادئة كعادتها والظلام يغطيها، وقفت أنظر إليها، ولسان حالي يردد: الظلام ليس انعدام النور، الظلام هو في عقولكم التي ظنت أنها دفنت وتخلصت من ساحرٍ منبوذٍ وعجوزٍ خَرِفٍ، ولكنه كان العاشق الوفيّ المتيم، والشاب المراهق. قلت هذا في صمت كعادتي وقدماي تسير إلى حيث لا أدري، وسط طرقات القرية الخالية، والظلام الدامس يغطيها.

وأنا أسير صامتاً.....

تمت

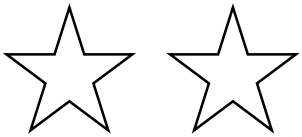

قريباً بإذن الله إذا قدّر الله لنا البقاء...
الجزء الثاني
مذكرات ميمون (العجوزُ الخَرِفْ).

قرية الظلام و عجوزها الخرف

رواية

الجزء الأول

أسامة علي

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com